# الرسالة

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٤ — ٢٣ رمضان سنة ١٣٥٧ — ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

## فهرس العدد


| صفحة | | | |
|---|---|---|---|
| ١٧٠٤ | الجنة المهجورة .. ... ... | أقصوصة مصرية . ... ... ... | بقلم الأستاذ دربى خشبة ... ... |
| ١٠٨١ | في المصيف . ... ... ... | للكاتب الروسى أنطون تشيهوف | بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ... |
| ١٠٨٦ | البيوت الثلاثة .. ... ... | أقصوصة مصرية ... ... ... ... | بقلم الدكتور محمد بهجت ... ... |
| ١٠٩٠ | بعد ثمانية عشر قرناً . ... | للكاتبة الانجليزية بارونس أورزى | بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ... |
| ١٠٩٩ | اللوح . ... ... ... ... | للقصصى الروسى فسفولد ميخائيلوفيتش | بقلم الأديب فخري شهاب السعيدى ... |
| ١١٠٧ | جزاء الفضيلة ... ... ... | للكاتب التركى رشاد نورى . ... | بقلم الأستاذ بشير الشريق ... ... |
| ١١١٢ | وفاء راقصة ... ... ... | للكاتب لافكاديو هيرن . ... ... | بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد |
| ١١١٨ | حاجى بابا أصفهانى ... ... | للكاتب الانجليزى جيمز موير .. | بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ... |

# الجنة المهجورة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ دمرجي خشبة

— منزلكم جميل جداً يا نعيم ! حقول فسيحة تطن بالنحل والفراش ، ونهر عظيم ناعم الأديم ينبع من الأزل ويتدفق فى الأبد ، وريف وديع هادئ يُسيم فيه الشاء والبقر ، وينعم فيه الفلاحون بالتوت والجميز ... و ...

— حسبك يا محمود ! إن بيتنا هذا كالجنة المهجورة التى تفيض بالزهر الفياح والنبات الأرج ، وهى مع هذا بكماء خرساء عمياء ، لأن زهرها يتفتح فلا يحس به أحد ، ونباتها يتأرج فلا ينتفع به مخلوق

— ماذا تعنى يا نعيم ؟ أعاشق أنت ؟

— أنا ؟... أنا عاشق ؟ وَيْك يا أخى ؟

— ولم لا يا صديقى ؟ أنت شاب في مقتبل صباك وشرخ شبابك ، فاذا لم تحب ، فلمن خُلق الحب ؟

— خلق الحب لمن خلقوا له !

— وأنت من أمتهم ! أليس كذلك ؟

— أنا ؟ لشد ما يخدعك مظهرى عن مخبرى يا محمود !

— لست أفهم !

— لأنك كمعظم الناس ، يخلبهم زخرف الحياة فلا يعرفون حقيقتها

— ماذا يا نعيم ؟

— لا شىء ! ألست قد بهرك هذا المنزل الجميل وذاك المرج المونق فخدعك ظاهرى عن باطنى !

— توشك أن تنقلنى من عالمى الملموس إلى دنياك المترعة بالألغاز !

— ألغاز ؟ آه ! حقيقة إن الحياة مملوءة بالألغاز ، بل المعميات ، وهى مع ذاك وعلى ما يبدو لى لا ألغاز فيها ولا معميات !

— وكيف يا أخى ؟ أكاد أحسبك تناقض نفسك !

— كلا يا محمود ! إن الحياة حقيقة تصدم النفس ، وشعر يُزَوِّقه القلب ؛ والحقيقة تصنع نفسها ، أما الشعر فهو تعلات وآمال ، وهمس الروح التى تنشد الأمانى ولا تقدر عليها ، فهى تكتفى بأطيافها السابحة فى عوالم الخيال ، ترنو إليها وتغازلها بالأحلام ، حتى إذا استيقظت صدمتها الحقيقة المرة فَذُعرت ، وتمنت أن تعود إلى أشعارها الحلوة ... ولكن هيهات !

— هيهات ماذا ؟

— هيهات أن تعود نفس صدمتها حقيقة الحياة إلى شعر الحياة !

— إنك تخيفنى يا نعيم بهذا الذى تقول !

— حقاً أنا أخيفك لأنك أحسست أن كلماتى تنقلك من دنيا الأحلام الباطلة التى تسبح فيها إلى هذه الأرض التى خلقت من طين الحقيقة !

— لقد كنت أرجو أن أكتشف فيك غراماً ... فاذا

— فاذا أنت تكتشف فى آلاماً !

— ومع ذلك فأنا لا أفهم مصدرها !

— إذا ... هلم أرك بيتنا يا محمود !

* * *

— هذه غرفة أبي !

— إنها غرفة صحية واسعة جميلة الأثاث !

— ألست ترى أنها كذلك !

— بل أكثر من ذلك ! ما أثمن هذه السجادة الفارسية ! وهذا السرير الوثير ما أبدعه !

— وتلك آية أخرى على أنك تعيش على هامش الحياة !

— وكيف يا صديقي ؟

— لأن الذي فتنك من غرفة أبوي هو أثاثها وسجادتها وسريرها !

— وأنت ؟ ألا تفتنك هذه الأشياء ؟

— وكيف تفتنني وهي أكفان سعادتنا يا محمود !

— ويحك ماذا تقول يا نعيم ؟

— إي وربي إنها أكفان تلك السعادة العزيزة الغالية ... أنظر يا صديقي إلى هذا السرير الذي تقول إنه وثير ... أليس يشبه النعش ؟

— أي نعيم ! أي صديقي ! !

— ماذا يا محمود !

— إنك تزعجني !

— لعل الذي أزعجك شيء آخر ! هذه الألفاظ ... أكفان ... نعش ...

— أجل ... وشيء آخر ...

— وما هو ! ؟

— لهجتك ونبرات صوتك . . إن روحك تبكي من بين شفتيك

— أسلوبك جميل يا محمود ! بدأت تفهمني !

— لنخرج من هنا يا نعيم !

— ولماذا ؟

— لأنني أرتجف !

— ومم ترتجف يا صديقي ! ؟

— منك !

— مني ؟

— هلم ! هلم نخرج من هنا

— إنك تهينني يا محمود !

— ما إلى إهانتك قصدت ، ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— ولكني رأيت شيئاً غريباً في عينيك !

— رأيت شيئاً غريباً في عيني ؟ إنها أحزاني يا محمود ، وكنت أرجو أن تواسيني ، فإذا أنت تريد أن تهرب مني ... تعال !

— ٢ —

— أهكذا تقضي هذه الحياة يا نعيم ؟

— وماذا عسانا أن نصنع يا أختاه ؟

— إلى متى نتجرعها كؤوساً من العلقم يا أخي ؟

— وماذا جعلها علقما يا أمينة ؟ ألسنا في سعة وعز ؟ أليس لنا هذا المنزل المنيف ومن حوله ذاك البستان الفينان ؟ ألسنا محبوبين في ذاك الريف البريء ؟ فلِمَ تكون حياتنا علقما إذن ؟

— نعيم !

— ماذا يا أعز الناس على نعيم !

— لقد آن أن أصرح لك !

— تصرحين لي بماذا ؟

— بالسر نفسه الذي يمزق صدرك ، وتحسب أنك أنت الذي تعرفه وحدك !

— السر الذى يمزق صدرى ؟ أى سر هذا ؟

— نعيم ! لماذا إذن أنت منقبض النفس سادر هكذا دائماً ؟

— بل خبريني عن السر الذى تزعمين أنه يمزق صدرى ، ما هو ؟

— أراك تحاول أن أعترف أنا أولا ... كنت أحسبك أكثر شجاعة منى لأنك رجل وأنا امرأة

— عجباً ! أنتن يا بنات حواء تبدأن بنصب الشراك دائماً ! أى سر يا أختاه هذا الذى لا أجسر أن أعترف به لك قبل أن تعترفى لى به ؟

— وها أنت ذا تأبى إلا أن تبالغ فى الكتمان لأعترف أنا أولا ، ومع ذاك فقد أخذت تضطرب وتتنفصد عرقاً !

— أنت بارعة فى اقتفاء الصيد يا أمينة ، على أننى أحلف لك أننى لا أعرف أى سر تريدين !

— إذن هذا الشاب محمود !

— ماله !

— لقد ... أحبنى !

— وهل هذا سر ؟ هاها ... إنى أكون نحوساً إذا تزوجتما ! آه يا خبيثة ! لشد ما أفزعتنى !

— أرأيت إذن ؟ ها قد انشرح صدرك حينما اطمأننت على السر الذى يمزق صدرك ، وتأكدت أننى لا أعرفه !

— ماذا يا أمينة ؟ أتريدين أن تلعبي بى يا أختاه ؟

— سأظل ألعب بك حتى تعترف أنت أولاً ... تكلم يا آدم ! إنك لن تغلب حواء قط !

— يا عجباً ! تريدين أن أهذى ؟ أى سر هذا الذى يفزعك فلا تستطيعى البوح به ؟ ماذا صنع بك محمود ؟

— وماذا تظنه صنع بى ؟

— إعتدى عليك ! أليس كذلك ؟

— هو ذاك ! هو ذاك يا نعيم !

— ويلك يا شقية ، يا ابنة الحية التى لا تلد إلا حية !

— مرحى مرحى ! لقد انتصرت ! ها قد بحت بكل شىء يا عزيزى !

— انتصرت ؟ وكيف ؟ وبم بحت أنا !

— ألست قد قلت إننى ابنة الحية التى لا تلد إلا حية ؟ وبم كنت تريد أن تبوح أكثر من هذا ؟

— أمينة ! أصدقينى يا أختاه ! أحقاً قد اعتدى عليك محمود ؟

— محمود يعتدى على ؟ والله لأرويت الأرض بدمه ! حقاً لقد كانت أمنا كما زعمت ، رحمها الله وغفر لها ، ولكني تعلمت العفاف من مأساتها يا أخى فاطمئن !

— أمينة ! ماذا تقولين ! أية مأساة يا أختاه !

— أوه أيها الأبله ! إلى متى تتحامق على ! إذن فاعلم أننى اكتشفت السر الرهيب بعد إذ اكتشفته أنت مباشرة ، وفى الليلة نفسها التى كدت تنقض على الكأس الهائلة لتشرب الثمالة القتالة التى تركها أبوك المسكين ، لولا أن سمعت وقع قدمى !

— أمينة !

— محمود ! لا فائدة فى الانكار يا أخى ! يجب أن نتعاون على هذا الشقاء الذي أوقعنا فيه سوء طالعنا . نحن أبرياء ، ولكن البرىء فقط هو الذى يتعذب أكثر من غيره

— ولكن مالنا نحن إذا كان أبوانا قد شربا السم ... ؟

— مالنا نحن ؟ إننا الثمرة المرة يا أخى ؟ لقد اتفقا على أن يتخلصا من الحياة بالسم حتى لا نعرف

تحن سرها الرهيب ، ولكنك كنت مختبئاً فى الليلة الهائلة تحت النافذة تسمع حوارهما الخافت ، وتسترق حديثهما الفزع ... وكنت تحسب أنك وحدك تفعل هذا ، فى حين كنت أنا الأخرى أسترق السمع كما تسترق ، ولكن من ناحية أخرى ... أليس كذلك يا نعيم ؟

— .... ؟ ...

— يا للحياة من مأساة هى أشبه شىء بالمهزلة ! ومع ذاك كنت تريد أن تحتملها وحدك يا نعيم ، وكنت تتباله على لترى هل تعرف أختك البائسة سر أمها !

— الآن أعترف لك يا أختاه ... لكنى أقاسمك أننى ماعرفت كل شىء ، فهل عرفت أنت كل شىء ؟!

— عرفت كل شىء ياأخى ، بيد أننى أسألك أولاً ماذا تعرف وماذا لا تعرف من فصول هذه المأساة ؟

— الذى عرفته أننا لم نكن أبناء هذا الرجل الذى كان يحسبنا أبناءه .. واستنتجت بعد إذ رأيته يقنع أمنا باحتساء السم أنه فضّل أن يموتا فيذهبا بالعار كله قبل أن تأكلنا ناره ، وهذه تضحية عظيمة من الرجل الذى أحبنا ، والذى كنا نتمنى أن يكون أبانا الرحيم كما كنا نحسب

— والذى لا تعرفه يا نعيم ؟

— والذى لا أعرفه هو من عسى أن يكون أبانا يا ترى ؟ إنه يكون ألأم من خرج من صلب آدم ! ثم لماذا سلكت أمنا هذا السلوك الآثم ؟ إنها لا بد قد فعلته مضطرة بدافع غريب لم أستطع أن أحدسه !

— لقد كان زوج أمنا رجلاً عاقراً يئس الأطباء من إصلاحه ، وكان غنياً جم الغنى ، مثرياً واسع الثراء ، وكانت أمنا تحبه ، لكنها كانت تخشى أن يتزوج عليها أو أن يهجرها إلى حليلة أو خليلة ، فكانت لا تنى تبحث عن الطبيب المؤاسى ، فلما عز عليها زين لها الشيطان أن تحمل باسمه لتربطه بأسبابها برباط لا ينفصم .. وكانت تحتال لذلك بحِيَل جمة ، وذلك أهون الأشياء على المرأة متى أرادت ...

— أنت تستنتجين أم عندك علم بشىء يا أختاه !

— من ذاك ومن ذاك ...

— يجب ألا يقفو الانسان ما ليس له به علم يا أمينة فاحذرى !

— يا أخى لقد سمعت أكثر هذا الحديث من شفتيها وهى تعترف به للرجل المسكين الصالح . . . وسمعته من شفتيها وهى تهذى به فى حلم جميل إذ أنا بين ذراعيها ليلةً ، إذْ هى تقبلنى ، وتنثر دموعها على وجنتىّ ، وتستغفر لربها استغفاراً !

— أوه ! أذكر أنها صنعت مثل هذا معى ... اللهم يا من وسعت رحمته كل شىء إلا أن يُشرك به إغفر لها وارحمها

— وصنعت مثل هذا مع على ... ولقد رأيتها بعينى تنضح وجهه البرئ بدموعها !

— ياألله ! أو كلنا أبناء زنى ؟ اللهم لا رحمتها ! اللهم لا رحمتها !

— نعيم ! بل يرحمها الله أرحم الراحمين ! لا تبك يا أخى فان دموعك تنصب على وجهها كالمهل وهى الآن بين يدى ربها

— وهل كان استغفار إبراهيم ربه لأبيه إلا عن عدة !

— ذلك أن أباه كان مشركا يا نعيم

— وهل يزنى الزانى إلا وهو مشرك ..

— يرحمها الله يانعيم .. ورحمنى الله وإياك ياأخى !

— أتمنى حديثك يا أختاه ! من أبونا إذن ؟ !

— أبونا ! لعنه الله ! لقد قتله زوج أمنا !

— قتله الشيخ عبد الموجود !

— أجل ! وهل كان يلقى ربه إلا بهذا الدم !

— رحمك الله يا شيخ عبد الموجود ! رحمك الله فلقد كنت لنا خيراً من ألف أب !

— أى والله ! لقد كان لنا خيراً من ألف أب!

— ومن أبونا يا أمينة إذن ؟ !

— أبونا ! !

— أجل ! من هوه ؟

— وهل حتم أن تعرفه يا نعيم ؟

— حتم وأي حتم ... وهل أصبح بعد ذاك السر سر ؟

— إذن ... هو ... والد محمود ! !

— والد محمود ؟ ! يا للهول !

— هو بعينه !

— ومحمود !! ألا يعرف أن الشيخ عبدالموجود قتل أباه !

— أكبر الظن أن لا ! إن التحقيق لم يتناول شيئاً من ذلك ، بل لم تحم شبهة حول الرجل ، ولم يذكر اسمه قط

— يا للهول ! ومحمود مع ذاك يبحث عن قاتل أبيه !

— لا أحسبه يفعل يانعيم ؟

— لا تحسبينه يفعل ؟ وكيف ؟ ألا يفكر فى الثأر له ؟

— فى الثأر له ؟ ! إن الزناة لا يلدون ذوى حمية يا نعيم ؟

— أوه ! لقد ولدونا يا أمينة ! !

— ولكنا أبرياء يا أخى ، وما ذنبنا نحن ؟

— ودماؤنا يا أختاه ؟ أليست أنجس دماء في هذه الدنيا ؟

— بل هى أطهر دماء وأزكاها ! إننى ما رفعت وجهى فى السماء يا نعيم إلا رأيت الله جهرة ! لقد كنت أبكى أكثر منك ، وكنت أشعر بنار العار تدب فى عروقى كالحميم ، حتى رأيت ربى يمسح بيده المباركة على قلبي ، فشعرت بمن أنقذنى من جحيم أحزانى ...

— إيه ! يبارك الله إيمانك يا أختاه ! أما محمود!

— ماله ؟

— ماذا بينكما إذن ؟

— بينى وبينه مثل الذى بينى وبينك ، فهو أخى لظهر ، وأنت أخى لبطن ...

— لكنه لا يعرف هذا ، وأرى أنه يحبك !

— يحبنى ؟ إنه يكون غبياً !

— ولم يكون غبياً يا أختاه ؟

— لأننى لست جميلة ، وليس فىَّ ما يجذب قلوب الشباب ، وهذا ماأحمد ربى عليه حتى لاتكون المأساة هائلة !

— أو ليست مأساتنا هائلة مع ذاك ؟

— كلا ... إذ أنها لاتزيد على زلة أم تكررت ثلاث مرات ، وهى إن تكن مأساة ، فهى مأساة أوديب ، أو هى تشبهها ، وإن لم يشبه الرجل الصالح الشيخ عبد الموجود البطل أوديب !

— أى أنه يقل عنه تعاسة !

— الشيخ عبد الموجود برىء يا أخى ، ولذا فقد أخطأ فى شرب السم ، وقد قتل بانتحاره نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق ...

— إنه لم يطق الحياة بعد إذ عرف أننا لسنا أبناءه ، وأن زوجته التى هى أمنا كانت تخدعه فى شرفه ومعاشرته، وفى أيام السعادة الطويلة التى كان يظنها سعادة حقيقية ، فاذا هى نفاق في نفاق !

— لو تاب إلى ربه وسكن إلى رشده ، ماتناول الكأس أبداً !

وما ذا كان يصنع غير ذاك ؟ !

— كان ينبغي أن يكون شجاعا فيواجه المأساة مادام لم يرتكب جرماً

— وكيف كنت تحسبينه يواجهها ؟

— كما يواجه الناس أى مشكلة من مشكلات الحياة يلعب فيها القضاء ألاعيبه ! إنه قد قتل نفسه لأنه لم يُطق الفضيحة ، أليس كذلك ؟

— بلى ، هو ذاك ، ولأنه قد عز عليه أن يفقدنا ويفقد زوجته مرة واحدة ؟

— لا أحسبه حين أقدم على الانتحار قد فكر فيما تقول ، بل كان كل الذى رَوّعه هو شبح الفضيحة فلو أنه سكن إلى الله قليلا لما غلبه شيطانه لأن الذين صنعوا الفضيحة أشخاص آخرون

— بل هما شخصان أشدهما إثما زوجته

— والآخر أبونا الزاني يا نعيم ، وهنا لا تجد كيلا لعبد الموجود ، فعلام نحمى المسكين بنفسه إذن ؟

— من أجلنا !

— وهذا لا يصح إلا أن يكون خطأ مضافاً إلى خطأ ، فانه قد أذن لزوجته أن تحتسى السم ، وهى شخص الجريمة الأول ... ثم هو قد ثأر لشرفه من الرجل الذى أغراها فأزاله من الوجود وربّل بينه وبيننا ، فلم لم يعش هو ، ولو من أجلنا نحن ؟

— يعيش من أجلنا؟ وماذا يهمه من شأننا بعد ؟

يهمه هذا الخيال البديع ... خيال البنوة الذي كان يستغنى به عن حقيقة البنوة ؟

— هذا شعر يا أختاه ، وما أبعد الشعر من الحقيقة

— ولولا الشعر لأظلمت أفق الحياة ، وضاعت بهجتها

— كثيراً يا أمينة ماتكون الحياة غير المنطق ، وفى أغلب الأحيان يسلك الانسان سبيله فى الحياة خاضعا لعواطفه وغرائزه دون أن يكون لعقله سلطان عليه ، والناس فى هذا سواء ، حتى الفلاسفة الذين لا يكونون فلاسفة إلا حينما يناقشون معضلة منطقية أقام أحدهم قضيتها وأراد الآخر نقض أقوال صاحبه فيها ... أما هم فى حياتهم الخاصة ، بل العامة أيضاً ، فسوقون مثلنا ، لا يستخدمون عقلهم أو منطقهم أو فلسفاتهم ... وهكذا كان الشيخ عبد الموجود... ومن يدرى ! فقد أنتهى أنا ، وأنت أيضاً ، وقد ينتهى أخونا الصغير على ، إلى مثل ما انتهى إليه هذا الرجل البائس

— ماذا تقول يا نعيم ؟

— أقول إن آخرتنا قد تشبه آخرة الشيخ ، ولو لم نقصد نحن إلى ذلك ... فلا تنزعجى !

— لا أنزعج !

— بلى ، لاتنزعجى يا أختاه ، فوالله لقد أثرت لى سبيلى إلى الله ، وإنى أقاسمك أنني لن أقدم على ما أقدم الشيخ عليه ...

— وما دمت قد أعطيتنى موثقك على ذلك فكيف تنتهى أنت أو أنا أو أخونا على إلى ما انتهى الشيخ إليه ؟

— أما أنا فسيقتلنى الحزن

— وأي حزن يا أخى ؟

— أنت تتكلمين يا أمينة وكأنما قدت أعصابك من حديد ! أتسألينى أى حزن ؟ الحزن الذى ليس كمثله حزن ... إننا شُذاذ يا أمينة ! من أبونا ؟ من أمنا ؟ بيت من هذا الذى نأوى إليه بغير حق ؟ لمن هذه الضياع الشاسعة الواسعة ؟ بأى حق نتصرف فى ريعها ونحن نعلم أنها ليست لنا بحق ؟ كيف ندعى ملكيتها وغيرنا بها أولى ؟ أخوات عبد الموجود

وإخوته ؟ أليس أولئك ورثته الحقيقيين ؟ أين منطقك ؟ تكلمي ؟

— نعيم !

— أمينه ؟ ماأحسبك تزعمين أننا بعبدالموجود أولى ! أنا ذاهب يا أمينه !

— نعيم ! إلى أين يا أخي ؟

— سأهاجر إلى . . . إلى . . . إلى الله ! إنه حَسْبي وهو ولي ...

— وأنا يا نعيم !

— إن شئت هاجرت معي ! ولي مع ذاك شرط !

— وما ذاك جعلت فداك !

— أن تكوني مؤمنة فأنت التي أنرت لي طريق الايمان !

— سألبي يا أخي ! ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أخونا علي ؟

— سيأتي معنا ، وسيفتح الله به علينا !

— إذن ... هلم !

* * *

وذهب إخوة عبدالموجود إلى الأقطار الحجازية ليؤدوا فريضة الحج ، فلقوا نعيما وعليا وأمينة يهرولون بين الصفا والمروة ، ولما أفاضوا من عرفات دعاهم نعيم إلى منزله الهادىء الساكن السعيد القريب من المسجد الحرام فقضوا هنالك عيدهم ، ثم ذهبوا إلى دكانه الجميل فاشتروا العقود والخواتم والسبح والكوفيات والعقالات وتمر الحلية

وحاولوا أن يكلموا نعيما في الماضي فاعتذر لهم ، وكان الدمع قد أوشك يترقرق فتفيض به عيناه

— لكنك نزلت لنا عن كل ميراثك من أبيك ، وكذلك فعل أخواك ، وما كان لك سلطان على الصغير علي .. ولقد بحثنا عنك في أقطار الأرض لنرد على أخيك ما لا يقدر أحد على استلابه منه ، وها قد عثرنا بكم جميعاً ، فتقبل يابني أن نكون أوصياء على أخيك لنرسل إليه من مصر ما هو حقه

— بعد عام واحد يبلغ أخي رشده ويتولى هو هذا الحساب

— إذن فلنا مآرب أخر

— مآرب خير إن شاء الله

— تزوج ابن عمك محمدا من أمينة !

— بارككم الله ... لقد تزوجت أمينة !

— وممن ؟

— من الفتى المكي الحجازي الصالح ابراهيم ابن محجوب ، وهو يعيش وإياها في سعة والحمد لله وإن لي أنا الآخر لمأربا ...

— وماذا أصلحك الله وأثابك !

— ذاك أني كنت استعنت ببعض أموالكم على سفري ، وقد بارك الله لي ، وإن لكم في عنقي مائتي جنيه ، فها كموها !

— والله لا يكون هذا أبداً ...

— بل الحق أحق يتبع ... فخذوها أثابكم الله .

— والله لا تصل أيدينا إليها قط ... إنك تحيرنا يا نعيم ، وتذهب ألبابنا كل مذهب ... تالله إنه لسر ، ولا ندري لم تخفينه عنا ونحن أعمامك !

وذهب نعيم إلى جُدة ليودع القوم ، ولما همت الفلك واحتواها الماء ، زفر نعيم زفرة صدعت فؤاده ، وعاد إلى مكة أدراجه والدمع يترقرق من مقلتيه ، فقصد إلى مقام إبراهيم فصلى لربه ، واستغفر لذنبه ، واستعان بالصبر والصلاة على بلواه

# فى المصيف

للكاتب الروسى أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« أحبك فأنت حياتى وسعادتى ، وأنت لى كل شىء فى الوجود ! ولتغفر لى هذا الاعتراف فما أنا بقادرة على أن أحمل الألم ولا أشكو ، وما أسألك أن تبادلنى حبا بحب ولكنى أسألك العطف على والرأفة بى . فلتلاقنى فى تعريشة المتنزه فى تمام الساعة الثامنة من مساء اليوم ... وما أحسب بى من حاجة لأن أوقع خطابى هذا باسمى وإنى لأرجو ألا يزعجك أن أبقى مجهولة منك ، فحسبك أن تعلم إنى صبية مليحة المنظر ... وما عساك تطلب وراء ذلك ! »

هذا هو الخطاب الذى تلقاه ، ساعة الأصيل ، « بافل ايفانتش » وهو رجل متزوج يقضى عطلة الصيف فى بيت من بيوت المصايف ، فلما قرأه هز كتفيه ودعك جبهته ، وقد استولت عليه الحيرة ، وقال يخاطب نفسه :

« ياله من عمل من أعمال الشيطان . أنا رجل متزوج ، فما لهذه المرأة تبعث لي بمثل هذا الخطاب العجيب . السخيف ! ومن ترى تكون كاتبته ؟! »

وقلب بافل إيفانتش الخطاب أمام عينيه غير مرة وكرر قراءته مرة وثانية ثم تفل احتقارا وقال متهكما :

« إنى أحبك ! حقا لقد وقعت على شاب ظريف جميل أيتها الحسناء ؟ إذاً سأسرع إلى لقائك فى تعريشة المتنزه

لقد نعمت ، يابنيتى ، منذ أعوام طوال ، بأمثال هذه الخيالات ، وملأت مماطسى بما كانت تبعث به أزهار الغرام فى الجو من عطر زكى .. يالله ! إنى ما أشك فى أن كاتبة هذا الخطاب امرأة خليعة لا تقيم للفضيلة وزنا . رب ! إن لهؤلاء النسوة لأديما لا يحس الحياء . إنهن شبيهات باللعب التى تعرض فى الأسواق ليتلهى بها الأطفال فليغفر لنا الله!

إن المرأة التى تكتب مثل هذا الخطاب لرجل متزوج وأجنبى عنها لا يمكن أن تكون إلا امرأة هوائية مستهترة لا تحفل بالآداب . . الحق أن هذا هو غاية ما يصل إليه الانحلال فى الأخلاق ! »

وكان بافل إيفانتش قد تغلب فى السنوات الثمان من حياته الزوجية ، تغلباً تاماً على العواطف الغرامية ولم يتلق فى خلال هذه المدة أى خطاب من أية امرأة إلا أن يكون خطاب تهنئة . لهذا كان الخطاب الذى تلقاه أصيل ذلك اليوم منشأ اضطراب استولى على نفسه وحيرة أحاطت به من جميع النواحى على الرغم من محاولته الزراية بهذا الخطاب وبالمرأة التى بعثت به

ولم تمض على الرجل ساعة من تسلمه هذا الخطاب حتى كان مستلقياً على أحد المقاعد مفكراً يحدث نفسه فيقول :

« ما من شك فى أننى لست بالصبى الأبله الذى يندفع إلى المكان الذى عينته هذه المرأة للقاء ... ولكنى أرى من الشائق مع ذلك أن أعرف من هى هذه المرأة اللعوب ... تبارك الله ... إن الخط خط امرأة ما فى ذلك من ريب ... وإنى لأشعر أن الخطاب يعبر عن إحساس صادق ... لذلك يبعد أن

يكون خطاباً قد أريد به المزاح الخالص ... ويغلب أن تكون كاتبته إحدى هؤلاء الفتيات المصبيات اللواتى ... ولكن لعلها أرمل ... والأرامل على العموم مداعبات غريبات الأطوار ... يا لله ... ترى من تكون الكاتبة ؟ »

وكان مما صعّب الأمر فى نظر بافل ايفانتش أنه لا يعرف من بين زائرات المصيف غير امرأة واحدة هى امرأته ... فهمهم لنفسه :

« عجباً ... إن هذه المرأة تقول « إنى أحبك » فكيف أحبتنى ومتى وقعت فى شرك هذا الحب ؟! حقا إنها لامرأة مدهشة ! فما عهدنا الحب يقع على هذه الصورة ... ومن غير سبب ظاهر ... ومن غير تعارف سابق ، وقبل أن تعرف المحبة أى نوع من الرجال أحبت ... ما من شك فى أن كاتبة هذا الخطاب فتاة صغيرة ... خيالية ... ليس أدل على ذلك من وقوعها فى حبى أن بعد رأتنى اتفاقا مرتين أو ثلاث مرات فى الطريق ... ولكن ترى من تكون هذه الفتاة ؟!

وذكر بافل ايفانتش فجأة أنه إذ كان يسير خلال بيوت المصيف فى اليوم السابق واليوم الذى قبله التقى أكثر من مرة بفتاة حسناء على رأسها قبعة صفراوية اللون ، شامخة بأنفها إلى السماء ، وقد أطالت هذه الحسناء الرقيقة النظر إليه ، ولما جلس على أحد المقاعد العامة جلست إلى جانبه ... فسأل نفسه فى حيرة :

« أيمكن أن تكون هى ؟ ما أظن ذلك بممكن ! وهل من المعقول أن تحب فتاة هيفاء كهذه الفتاة كهلا مثلى متحطما ؟ كلا ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ! »

وفى أثناء تناول العشاء الأول نظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة تائهة ، وكان غارقاً فى بحر من التأمل والتفكير يحدث نفسه بقوله :

« .. إنها تقول فى كتابها إنها صغيرة حسناء .. إذن هى ليست عجوزاً ... عجباً ! الحق الذى لا مرية فيه أننى لست من الكبر والسذاجة بحيث لا يمكن أن تقع امرأة فى حبي ! فامرأتي تحبنى . ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن الحب أعمى .. وليس فينا من يجهل ذلك ... »

وقطعت عليه زوجه سلسلة تفكيره بهذا السؤال :

— فيم تفكر ؟

فأجاب الرجل ولم يك صادقاً فيما قال :

— أنا لا أفكر فى شىء ... ولكننى أشكو صداعاً خفيفاً ...

واستقر رأيه آخر الأمر على أن من الغباوة والبله أن يفكر فى شىء لا معنى له ، كخطاب تحدثه فيه كاتبته عن الحب ... وعاد يهزأ فى نفسه ، من جديد بالخطاب وكاتبته

ولكن أسفاً ... إن للانسان من نفسه لعدواً قوي السلطان ! فقد رقد بافل إيفانتش بعد العشاء على سريره ، وبدل أن ينام انهمك مرة أخرى فى التفكير والتأمل فكان يحدث نفسه :

— ولكنى أستطيع أن أجزم بأنها الآن جالسة تحت التمريشة فى انتظارى . فيا لها من حماقة ! وإنى لأتصور إلى أى حد تثور أعصاب الفتاة وقد استولى عليها القلق من طول الانتظار ، كما أتصور كيف ضاق صدرها عندما دخلت التمريشة ولم تجدني فيها ومع ذلك فلن أذهب ... ولتأكل نفسها ؟

ولكننا نعود فنقول أن للانسان من نفسه لعدوا قوى السلطان . فلم تمض على الرجل نصف ساعة وهو راقد على فراشه حتى حدث نفسه من جديد :

« ومع ذلك فقد يحسن، من قبيل الاستطلاع، أن أذهب وأنظر من بعد أى نوع من المخلوقات هذه الفتاة ... وما تضرنى نظرة سريعة أتعرف منها شكل المرأة التى تجرؤ على كتابة مثل هـذا الخطاب ... وهل يكون ذلك أكثر من دعابة لا يبقى لها فى نفسى من أثر بعد أن تمر لحظتها ... لقد هيأت لى المصادفة فرصة للدعابة فلم لا أقتنصها ؟ »

وهب بافل إيفانتش عن سريره وشرع فى ارتداء ملابسه .

ولا حظت امرأته أنه أعد قميصاً نظيفاً ورباط رقبة أنيقاً فسألته :

« لم أراك تتأنق فى لباسك على هذا النمط ؟ »

فأجاب الرجل متململاً :

« أف ! ليس هناك مايدعو إلى العجب . . . وما هناك من شيء ، غير أن بى حاجة شديدة إلى التروض ... فرأسى مصدوع ... و ... أف ! . »

ارتدى بافل إيفانتش أحسن ملابسه فبدأ فى أجل هندامه ، وانتظر حتى وافت الساعة الثامنة وغادر البيت . فكان كلما التقى بأحد من زوار المصيف من رجال أو نساء أسرعت نبضات قلبه . وكان كلما رأى امرأة سأل نفسه متحيراً :

« ترى أيهن هى بين هؤلاء ؟ ولكن مالى أشعر بشيء من الخوف ؟ وعلام هذا الاضطراب ، وما أنا بذاهب إلى موعد ولقاء ! يالها من غباوة وحمق ! فلأتقدم فى ثبات ! ثم ماذا علىّ إذا أنا دخلت إلى التعريشة ؟ ولكن لا ، فليس هناك ما يستوجب الدخول »

ثم اشتد خفقان قلب بافل إيفانتش

. . . وتصور فجأة وعلى غير إرادة منه منظر التعريشة المظلمة . . وخيل إليه أنه يرى فيها فتاة رائعة المنظر على رأسها قبعة سماوية اللون وأنفها شامخ إلى السماء . . تصورها مستحيية لما ظهر من حبها . . وقد أصابتها الرجفة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . . ثم رآها وقد تقدمت إليه على استحياء وهى مضطربة . . و . . على حين فجأة ضمته بين ذراعيها . .

وحدث نفسه — وهو يحاول أن يطرد من رأسه جميع الأفكار الآثمة :

« لو لم أكن متزوجاً لما كان ثمت من بأس . . على أنه أى ضرر فى أن أحاول مرة فى حياتى هذه المحاولة من باب الاختبار ؟ . . وإلا فأن الانسان يموت قبل أن يتعلم ما يجب . ثم أى شيء فى ذلك يضير امرأتى ؟ ألا فلتشكر لله فى خلال ثمانى سنوات عشتها معها لم أبتعد عنها خطوة واحدة ... ثمانى سنوات أؤدى واجب الزوج المخلص بما لا يدعو إلى لوم أو عتاب ! أما يكفى كل هذا الوقت الطويل فى مثل هذه الحياة المقيدة . . حقاً أن ذلك لما يضيق له الصدر . . وإنى لأشعر أنى لن أبالى بغضبها

ودنا بافل إيفانتش من التعريشة وقد استولت الرجفة على جميع أطرافه وأمسك بنفسه كالمتلصص ثم مد رأسه إلى الداخل فملأت رطوبة الجو خياشيمه وقال يحدث نفسه :

« أعتقد أن ليس هناك من أحد »

وتقدم بضع خطوات حتى صار داخل التعريشه

وهناك تبين شبح إنسان فى أحد الأركان

وكان شبح رجل ... وإذ دقق النظر عن قرب تبين أن هذا الانسان ليس أحداً غير الطالب ميتيا شقيق امرأته الذى يعيش معه في البيت

فدمدم ممتعضاً بعد أن جلس ونزع قبعته :

« أف ! هو أنت ؟ ! »

فأجابه ميتيا :

« نعم هو أنا ذا »

ومرت لحظة ساد فيها السكوت ثم قال ميتيا :

« عفواً يا بافل إيفانتش إذا رجوتك أن تتركنى وحدى ، فاننى أفكر فى الرسالة التى أتقدم بها للحصول على درجتى العلمية ... ووجود أى إنسان إلي جانبي يقطع على طريق التفكير »

فقال بافل إيفانتش فى شىء من التواضع :

« وقد يكون خيراً لك يا ميتيا أن تذهب إلى أى مكان آخر يتفق مع غرضك كزاوية في بعض الشوارع الكبيرة المظلمة ... فان الهواء الطلق مما يسهل عليك التفكير ... ثم لا أخفى عليك أننى أود ... نعم أود أن أنام فترة قصيرة هنا ... فوق هذا المقعد ... فالجو فى هذا المكان أقل حرارة منه في البيت ... »

فأجاب ميتيا متذمراً :

« الأمر بالنسبة إليك أمر نوم ... أما بالنسبة لى فأمر استذكار وتفكير فى الرسالة العلمية ... ومن البديهى أن يكون التفكير فى مثل هذا الموضوع خيراً من النوم ... »

وساد السكوت مرة أخرى ... وكان بافل إيفانتش قد أرخى العنان لخياله ، وخيل إليه أنه يسمع وقع أقدام فنفر من مكانه فجأة وقال فى صوت يتهدج غضباً :

« أرجو أن تصغى إلي يا ميتيا ! فأنت أصغر منى سناً وواجب عليك أن تحترمنى ... وأنا الليلة مريض ... وبى حاجة ماسة إلى النوم ... فلتنصرف من هنا ! »

فأجاب ميتيا :

« إنك لتدل بذلك على أنانيتك الشديدة . فلماذا تبيح لنفسك البقاء هنا وتطلب منى الانصراف .. إننى تمسكا بمبدأ الحق لن أغادر هذا المكان »

فقال إيفانتش محتدا :

« إصغ إلى إنى أطلب منك أن تنصرف ! فقل عنى إنى أنانى . مستبد أحمق . قل ماتشاء . ولكننى أطلب منك أن تغادر هذا المكان فى الحال . وهذه أول مرة فى حياتى أطلب منك فيها أن تسدى لى يدا بمعروف ! فهلا ظهرت بشىء من حسن التقدير والذوق ... »

فهز ميتيا رأسه وقال بافل إيفانتش فى نفسه :

« ياله من حيوان حقير . إن وجوده هنا تعسير على اللقاء ! نعم مستحيل على أن اجتمع بها فى حضرته ! »

ثم وجه إليه الخطاب قائلا :

« استمع ياميتيا إنى أطلب منك للمرة الأخيرة . فلتثبت أنك رجل ذو إحساس . مهذب . فى نفسك شىء من الانسانية ! »

فهز ميتيا كتفيه وقال :

« لا أعرف لماذا تلح على هذا الالحاح . لقد قلت لك إننى لن أغادر هذا المكان . وها أنا أكرر لك هذه القول .. نعم سأبقى هنا احتفاظا بمبدأ الحق والحرية ... »

فى هذه اللحظة أطل داخل التعريشة رأس

إمرأة شامخة الأنف إلى السماء ...

فلما رأت ميتيا وبافل إيفانتش حبست وجهها واختفت فى الظلام .

فقال بافل إيفانتش فى نفسه وهو يرمق ميتيا شزراً :

— لقد ذهبت ... نعم لقد رأت هذا الحيوان الدنئ فهربت ! لقد أفسد هذا المجرم كل شيء علىّ

وانتظر بافل إيفانتش فترة قصيرة ثم هم واقفاً فوضع قبعته على رأسه وقال :

— إنك وحش ... إنك حقير ... وجبان دنئ ! نعم لقد برهنت على وحشيتك ودناءتك ... أيها الأحمق ... والآن لتعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى !

فوقف ميتيا أيضاً ولبس قبعته وقال :

— إنى لسعيد لسماع هذه الكلمات ... ولتعلم أنك بوجودك هنا فى هذا الوقت قد مثلت معى فصلاً قذراً لن أنساه لك ما حييت

وخرج بافل إيفانتش من التعريشة فعاد إلى بيته مسرعاً وهو ثائر غضب .. ولم يجد منظر المائدة المعدة لعشاء الليل فى التخفيف من غضبه

وفكر فى نفسه وهو ثائر مضطرب :

— مرة واحدة فى العمر تسنح لى مثل هذه الفرصة ... ثم تفلت منى فى اللحظة التى كدت أنتهزها فيها ... إنها الآن غاضبة مسحوقة القلب !

وفى أثناء تناول الطعام ثبت بافل إيفانتش وميتيا نظريهما فى أطباقهما وصمتا صمتاً كئيباً ... وقد طفح كل منهما ببغض صاحبه ...

ونظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة التحفز وقال :

— علام تضحكين ؟ إن الحمق الأغبياء هم الذين يضحكون من غير سبب ؟

ونظرت المرأة إلى وجه زوجها الغاضب وانفجرت ضحكا وسألته :

— ما هذا الخطاب الذى جاءك اليوم ؟

وأخذ بافل ايفانتش بهذه المفاجأة فتولاه الاضطراب وقال :

— أنا ؟ أى خطاب تعنين ؟ أنا لم أتسلم خطابا ما ... وإنك لتخترعين ما تقولين ... وأراك تجرين وراء الخيال ...

قالت امرأته :

— ألا فلتكن صريحا ! فانى لواثقة من أنك قد تسلمت اليوم خطاباً ! ثم علام الانكار وأنا مرسلة الخطاب ! نعم أقسم لك بشرفى إننى أنا التى أرسلت لك هذا الخطاب ! ها ! ها !

فاحمر وجه بافل ايفانتش وأرخى نظره إلى صحنه وقال مهمهما :

— مزاح بارد !

فقالت زوجته :

— ولكن خبرنى بالله ماذا كنت أستطيع أن أعمل غير ذلك وكان علينا أن ننظف الغرف هذا المساء ... ولم تكن هناك من وسيلة أخرى لاخراجكما من المنزل !.. ولكن لا تغضب أيها البليد فلقد أردت ألا يتولاك السأم من الجلوس وحدك فى التعريشة ... لذلك أرسلت لميتيا أيضاً بصورة من الخطاب الذى بعثت إليك به ! فهل ذهبت إلى التعريشة يا ميتيا ؟

فكشر ميتيا عن أسنانه وخرج يرمق منافسه فى موعد الغرام بعين الغضب والبغضاء !

عبد الحميد محمدى

# البيوت الثلاثة

أقصوصة مصرية

بقلم الدكتور محمد بهجت

وتقع كلها فى شارع واحد من شوارع حى محرم بك بالاسكندرية ، أما الأول فبيت كبير فخم يدانى القصر فى أبهته ورونقه ، ذو شرفات واسعة مشرفة يدور عليه سور من غليظ الحديد ترى من خلال قضبانه حديقة أنيقة متعددة الألوان يسكنه رجل من أصل تركي اسمه مدحت بك . آلت إليه الثروة عن طريق أبيه الذى كان من ندماء الخديو إسماعيل باشا . وكان أن صدرت منه نكتة ظريفة فأنعم عليه الخديو العظيم بجارية حسناء وخمسمائة فدان من أجود أراضى البحيرة . أما مدحت بك فرجل أرمل نحيل تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ليس له ولد يرث ثروته العريضة ولذا كانت تعلو ذلك المنزل وحشة وكآبة لا يسترها جمال بنائه وتنسيق حديقته ، يجلس على بابه زنجى عجوز يسمى عم حسين تدور على رأسه عمامه كبيرة بيضاء ، وله لحية كثة بيضاء كذلك ، وعينان حمراوان مغرورقتان . وإذا ما طلعت الشمس فى الشتاء تراه جالساً على مقعده الخشبي يصطلى دفئها فى سكون ولذة فاذا ما انحرفت إلى الغرب قليلا نقل مقعده إلى حيث تميل حتى تراه جالساً فى منتصف الشارع لايقوم إلا إذا سمع صوت عجلة مقبلة أو ليتبع ضوءها إلى الجانب الآخر . وإذا ما بدأت الأشعة تصعد جدار المنزل المقابل قام فألصق نفسه به إلى أن تجاوز الأشعة رأسه فيجذب حينذاك مقعده ويقف عليه بل ويشب على قدميه حتى لاتفوته لحظة استمتاع . وأخيراً يرجع المسكين إلى بابه منكس الرأس وهو يود لو تحتمله خيوط الشمس فيتعلق بها ويغرب معها

وأما البيت الثاني فهو ذلك الذى يقابل البيت الأول والذى تنتهى عنده لذة ذلك الزنجى التعس كل مساء ، صغير متوسط البناء تقطنه عائلة متوسطة الحال يشتغل ربها متولى افندى بالجمرك ويتقاضى مرتباً ممتدلا لا يكاد يكفى للانفاق على زوجه وأولاده الخمس ، أكبرهم سميرة التى كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً . جميلة الحيا فتانة ، قوامها رشيق يحلو للشباب أن يحل فيه ، يانعة كالوردة فى أول تفتحها . ولا يهمنا أن نعرف شيئاً عن باقى أفراد العائلة ، ويكفينا أن نذكر أن المنزل كانت تخيم عليه السعادة والقناعة والرضا ...

أما البيت الثالث فهو لصق البيت الثانى تسكنه أرملة المرحوم درويش أفندى مع أولادها الثلاث . مات عنهم عائلهم الذى كان موظفاً بالبلدية وخلّف لهم الفقر ومعاشا ضئيلا يتعيشون منه . فوضعت الأرملة كل أملها فى ولدها الأكبر حسن وعنيت به العناية كلها . ولشد ما كانت تجول دموع الفرح فى عينيها نهاية كل عام دراسى حينما يدخل عليها ويخبرها بأنه بذّ كل أقرانه وخرج متفوقا على رأس فرقته . أما يوم حصوله على البكالوريا فكان يوماً مشهوداً فى هذا البيت الصغير ولكن سرعان

فما كانت سحابة كدر في ذلك الجو الفرح عند ما تقرر سفر حسن إلى القاهرة لدراسة مادة القانون

وكانت بين عائلتي المرحوم درويش ومتولي أفندي صداقة قديمة ، وكثيراً ما تكلمت الوالدتان في زواج حسن من سميرة عند ما يبلغان السن اللائقة. وبطبيعة الحال لعب حسن وسميرة سنوات طويلة مع بعضهما . وكانت بينهما ألفة عظيمة فكانت تراح إليه ويرتاح إليها ، كانت تخصه بعطفها وحنانها ويخصها برعايته واهتمامه، ولكن حدث أن قل الاختلاط والتمازج رويداً رويداً إلى أن امتنعا تماماً عند ما شبا وكبرا . وربما كان ذلك استحياء منها أو عن رغبة والدة سميرة التي ارتأت أن تحجزها عنه فأصبح لا يراها ولا تراه إلا من النافذة ويقنعان بتبادل ابتسامة حلوة وبعض إشارات خفيفة يختلسانها من وقت لآخر . غير أن ذلك لم يعد يروق لحسن إذ ازدادت رغبته في الاكثار من رؤيتها ولم تلبث الرغبة أن انقلبت إلى لهفة فكان يقضي معظم أوقاته إلى جانب النافذة وزاد في لهفته شعوره بدنو يوم الرحيل . وأخيرا نفد صبره فراح إلى أمه يصارحها بما جدّ في نفسه من شعور وسألها أن تخطب له سميرة حتى يستطيع أن يجالسها وينعم بقربها

ذهبت أمه في اليوم التالي إلى بيت سميرة وبعد ترجيع الكثير من الذكريات الماضية طلبت يد سميرة لابنها فابتسمت والدة سميرة ابتسامة المدل وعذرت بقولها أنهما ما زالا صغيرين وأن أمام حسن مرحلة كبيرة قبل أن يدخل في طور الرجولة العملية . رجعت الأم المسكينة بالخبر الذي تلقاه حسن بالصبر ثم حزم أمتعته واستعد للسفر . وكانت وقفة طويلة بجانب النافذة ودع فيها سميرة وداعا طويلا مؤثراً أجرى دموعهما التي نمت عن حب عميق باض وفرخ في قلبيهما الفتيين الطاهرين

ولنعد إلى مدحت بك صاحب البيت الأول فتراه قد برم بوحدته وأصبح يشعر بفراغ مؤلم في حياته ويتمنى من صميم فؤاده لو أن له ولداً يرثه وطالما شكا ذلك الهم الدفين إلى خادمه العجوز الأمين الذي تلازمه وتعنى به عنايتها بطفل . فما كان منها إلا أن أشارت عليه بالزواج من فتاة صغيرة تجعل من قبر بيته جنة يانعة وتملأ فراغ حياته بالسعادة التي يظمأ إليها واقترحت عليه أن يخطب سميرة ابنة متولي افندي فهي غاية ما يشتهى من الحسن ثم أن الحصول عليها محتمل لفقر والديها فأبرقت أسارير وجهه وراقه الاقتراح وفوض إليها تمهيد الطريق لذلك . فذهبت في اليوم الثاني إلى منزل متولي افندي وهي تخفي غرضها ، وأخذت تطنب في حسن أخلاقهم وطيب سمعتهم وتغدق عليهم من كلمات العطف والمحبة الشيء الكثير . وجرى الحديث وتشعب إلى أن سألتها والدة سميرة عن حال سيدها فأظهرت لها ما هو عليه من ضخامة الجاه والثروة وكيف أصبح يفكر في الزواج ليكون له ولد يفرح به وليورثه ماله الكثير . وبعد أن أحكمت نصب الحبالة قامت متسرعة وهي تحتج بقرب عودة سيدها ثم عاودت الزيارة ثانية وثالثة وفي كل مرة تضرب على هذه النغمة الساحرة إلى وجدت مغمزاً ليناً في جانب والدة سميرة وفي مساء أحد الأيام قرع عم حسين الزنجي العجوز الباب وأعلن أن سيده يرغب في زيارة متولي افندي فكانت حركة ونشاطاً وجلبة اشترك فيها الصغار والكبار استعداداً لاستقبال الجار الوجيه فأقبل تكتنفه مظاهر الثراء والعظمة وجلس يتحدث إلى متولي افندي عن حقوق الجار وعن تعضيدهما في التعارف والعمل بوصاة النبي الكريم. وبعد أن زخرف وذهب الكثير من القول أفهم متولي افندي أنه يرغب في الزواج من إبنته ليتمكن من مساعدة العائلة . فشكره متولي افندي واستمهله بضعة أيام للتفكير في الأمر والتداول .

ولم تطل المداولة بينه وبين زوجه فقد بدت لهما قصور الأمانى شاهقة وقررا أن يزوجا سميرة من ذلك الشيخ الغنى. وعبثاً حاولت سميرة أن تقنعهما بخطل رأيهما الذى بناه على الطمع لا على ما يحقق سعادتها الحقيقية ، وأن الأمر أمرها هى فلم يصغيا لها وأفهماها أن الارادة إرادتهما . فأذعنت واسلمت نفسها للآلام والأحزان .

وعلم حسن بالأمر فزاد همه وفترت همته واضطرب حاله فلم يعد ذلك الطالب النابه المبرز بل رسب فى الامتحان وتملكه يأس شديد خيل إليه أنه سيقضي على مستقبله بعد أن تبدد حلم شبابه . وعاد إلى الاسكندرية لقضاء العطلة الصيفية . وكانت أياماً سوداء تجرعت فيها العائلة غصص الأحزان واستسلمت إلى يد القدر القاسية التى راشقها بسهام الآلام إلى أن تكسرت النصال على النصال ... وفى مساء يوم جميل بدا منزل متولى افندي فى أبهج زينة وسطعت منه أجمل الأنوار وتمت فيه كتابة العقد واستمر السرور الكاذب إلى ساعة متأخرة من الليل . . . وكما يبدو سطح الماء صافياً بينما الكدر راسب بالقاع ، وكما يحمل العسل السم الزعاف بين جزيئاته الحلوة ، وكما تبدو الشوهاء جميلة من وراء النقاب كذلك بدا ذلك العرس الذى قام على فتات قلوب سحيقة . ولو رفع متأمل ليلتئذ بصره إلى شباك المنزل المجاور لأبصر شبح حسن منهدماً كأنه كومة بشرية يرنو إلى تلك الأنوار فيخالها تحترق من سراج حياته . وما أن انطفأت الأنوار حتى رفع حسن عينيه الدامعتين إلى السماء يستصرخ تلك العين الساهدة التى لا تنام . وفى هدأة الصباح وقبل شروق الشمس بقليل سمع صياح وعويل ففزعت سميرة وهرولت مع من هرول من أهل المنزل إلى النافذة وهناك كشفت الحقيقة عن وجهها البشع وبدت مخيفة مؤلمة . لقد انتحر حسن ا تجرع جانباً من محلول اليود — ذلك السائل الذى يريح الناس على أى حال ، فإما بالشفاء وإما بالموت . وانتابت سميرة إغماءة طويلة كانت أبلغ احتجاج على قسوة القلوب الجافية ، وعاين منها والدها ضعف الأساس الذى قامت عليه أطماعهما وحقارته . أما الناس فعزوا انتحاره إلى خيبته المدرسية وأما أهله وأهل سميرة فمنهم الخبر اليقين وقد حرصوا كل الحرص على أن لا يفشو ويذيع . . . غير أن حسن لم يمت إذ أسعفه طبيب بالعلاج وأنجاه من مخالب الموت فخلص من موت جسمانى ليبقى فى موت نفسانى . وقال الناس : انتصر الشباب على الموت وعوفى حسن . والحقيقة أن جراحات نفسه كانت دامية نزازة لا ينفع فيها طب طبيب

وفى ليلة علمت سميرة بتحديد يوم الزفاف فانتابتها رعدة ثم ذهول أشبه بذهول الفريسة بين يدى الوحش الكاسر قبيل انقضاضه عليها والتهامها . فانسابت إلى غرفتها وأطلقت لدموعها العنان . وفجأة رفعت رأسها إلى السماء تستنصر العين الساهرة التى لا تنام . وإذ ذاك وقعت عيناها على نجم لامع فوق الغرفة التى بها حسن وخيل إليها أنه خفق خفقتين فهدأ روعها وحل بقلبها هدوء وسلام وأسلمت نفسها للذيذ المنام

وقبل يوم الزفاف بأسبوع واحد ، كان اليوم ينعب فى الليل نعيباً مؤلماً متقطعاً وفى الصباح انطلق صراخ وعويل من المنزل الأول ، لقد توفى مدحت بك بسكتة قلبية أدركته وهو فى فراشه يحلم أحلامه اللذيذة

تمت المعجزة وانجلت المأساة عن انحدار ثروة عظيمة لسميرة ، إذ ورثت ثلاثين ألفاً من الجنيهات عدا العقار . وما هى إلا بضعة شهور حتى عقد لها على حسن ثم انتقلت به وبعائلته إلى القاهرة وساعدته على إتمام دروسه وعاشا سعيدين فى ظلال الحب

محمد بهجت

# من الأمة وإليها

قبل شرائكم الطرابيش




لاحظوا هذه الماركة

طربوش القرش : الذى ساهمتم جميعا بجهودكم وقروشكم فى تأسيس صرح الشامخ

طربوش القرش : الذى فاز على سائر الطرابيش الاجنبيه

طربوش القرش : الذى تشترونه يحفظ أموالكم فى بلادكم

طربوش القرش : هو شعار الوطنية وتاج القومية

| محمد على | فؤاد | قلعه | محله | قها |
|---|---|---|---|---|
| ٣٥ | ٣٠ | ٢٥ | ٢٠ | ١٥ |

خامات فاخرة - صباغة ثابتة - نسيج مصقول

تحسينات متواصلة - أسعار معتدلة محددة

صناعة مصرية صميمة

إنتاج

مصنع القرش للطرابيش وغزل الصوف



# الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

## ابى العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة



# رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

ترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

مريم المجدلية ...

# بعد ثمانية عشر قرناً

للكاتبة الإنجليزية " بارونس أورزى "

بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة

## تعريف بالقصة

بارونس أورزى أو البارونه أورسای Orezy من أشهر كاتبات القصص فى اللغة الانكليزية . نبيلة بريطانية ، مختلطة الجنسين الفرنسى والسكسونى ، تسلسلت من نبلاء فرنسيس هاجروا إلى انجلترا أيام الثورة الفرنسية ولذا اتخذت موضوع الثورة وحياة فرنسا وانجلترا لمعظم قصصها ومنها « الزهرة القرمزية » ، سوف أسدد دينى ، البدورادو . وقد اتخذت پيرنل رمزاً لشخصية فتى محبوب جعلته بطلا لكثير من قصصها الطويل فى مغامرات النبلاء أثناء الثورة . وهذه القصة التى ننقلها إلى العربية تحكى تاريخ فتى فرنسى ارنست كنزلو ، يبحث عن سر عميق لقاء سر آخر ، يهبه لمن يهديه إلى سر مولده وفيها وصف جميل للاشراف والجزويت وتحليل للاخلاق والنفسيات وهى منشورة فى مجموعة مغامرات پيرنل

(The adventures of the scarlet Pinpernel.)

لما خرج أرنست كنزلو من سجن لاجيوتيير بمدينة ليون فى أصيل يوم ١٤ مسيدور من السنة الثالثة للثورة الفرنسية ، كان الخادم صاحب الرداء الرسمى البنفسجى ذى السجاف والطراز الأحمرين ، فى انتظاره ، فتناول هذا الخادم أمتعة الفتى ارنست ، وكانت نزرة يسيرة ، ثم خرج به من ذلك المكان المنكر سجن لاجيوتيير ، وسلك طريق راموپاردينى ، إلى ضفة نهر الرون عابراً ذلك الجسر الحجرى العتيق ، الذى مرت عليه جحافل الصليبيين فى طريقهم من قلب بيرجندى وبيرجونى إلى رومة ومالطة ، فالشرق الأدنى لمحاربة العرب ، أتباع صلاح الدين الذى تغلب على معظم أمراء فرنسا وانجلترا ... فاستحضر الخادم قارباً ، فركباه وارتفعا فى النهر إلى قرية كولانج ، وجعل ارنست كنزلو فى أثناء ذلك يخال أن الشمس لم تكن قط أشرق منها فى هذا النهار ، ولا أبهى رونقاً ولا أبهر لألاء ، ولا كان النسيم أروح قط منه فى هذه الساعة ولا أبرد على الأكباد ، ولا أندى على القلوب ، ولا أنعش الأرواح والأبدان . وبينما يرتقيان مع العباب الزاخر ، يعملان المجاديف ، خيل إليه أن حديقة بيلكور ، قطعة من رياض الجنة ، وامتلأ قلبه سروراً وجذلا لمنظر الأرصفة والدكك والمبانى القائمة على ضفاف النهر مثل باليه رويال ، ودير لاشاريتى حيث كان قد شرع فى بناء الجسر الفاخر الجديد ، وبرج كارز چوبيه وقصر الحرية ، ومنظر نهر الرون تتلألأ صفحته رونقاً ويتوهج متنه بريقاً يضاحك حاجب الشمس وتلاعبه الأشعة ، قد ازدحمت على صدره القوارب والزوارق — هذه المناظر الجمة المختلفة أفعمت قلبه فرحاً ، وهزت أعطافه مرحاً .

ولا جرم أن يطرب لأمثال ذلك المنظر حديث العهد بالسجن ، قد لبث طويلاً فى ظلمات وحشة يضاعف ظلامها سواد همومه وأشجانه ... وما زالا يستحثان القارب ارتفاعاً فى النهر ، حتى انتهيا إلى قرية كولانج

الحسناء ، المضمنة طائفة عديدة من منازل بديعة وبقية للأشراف والسادة ، الذين عملت الثورة على تقويض مجدهم وهدم صروح عظمتهم وتبديد ثروتهم ، ومصادرة أملاكهم والقضاء على مظاهر قوتهم ، بعد أن ظلموا الرعية وانتهكوا الحرمات ، وناءوا بكلكلهم على صدور الأمة فامتصوا دماءها واستعبدوها وهم أجراؤها وخدامها . وكان هؤلاء السادة من الأعيان والأرستقراطية ، وعبّاد الشهوات وسدنة هياكل المال قد تعلق منهم بأذيال الفرار من تعلق ، واختبأ فى خفايا القصور العتيقة من اختبأ ، وما كان يجرؤ على الظهور منهم إلا المسلح المدرع الذى يستطيع أن يدافع عن نفسه . أما خدمهم فكانوا يسرحون ويمرحون ، ولا جناح عليهم ، لأنهم من طبقة الشعب ولا يتميزون عليه إلا بآثار النعمة البادية عليهم . كذلك الخادم الذى كان فى انتظار أرنست كنزلو بساحة السجن ، فى عصر ذلك النهار . وكذلك وصلا إلى دار النبيلة الكونته — وهى دار بهيجة جديدة ، إذ كانت من منشآت العام الأخير من حكم لويس الرابع عشر ، وهى فى الصف المواجه للنهر ، وراءها بستان أنيق ، وهى تشرف على مشهدين جميلين ، أحدهما تلقاء بواسالك والثانى ناحية سان بول ، حيث يقوم القصر الفخم العتيق — قصر البرنس بوربون

* * *

فى بهو الكونتيس أبصر أرنست كنزلو بعض تلك الصور التى كانت فى قصر جرانمولان ، والتى قد نقلتها السيدة النبيلة إزابيل دى كابيت إلى دارها الجديدة عقب وفاة زوجها — وهو والد أرنست كنزلو — من امرأة من الشعب . وفى أخص مكان وأشرف موضع كانت ترى صورة السيدة النبيلة الكونته إزابيل دى كابيت بريشة المعلم دافيد . ذلك المصور النابغ الذى امتد به أجله حتى رسم بريشته تصاوير نابوليون وجوزفين بوهارنيه وجميع الأمراء والأميرات من أسرة بونابرته ، بعد أن رسم تصاوير دانتون وروبز بيير ومارات وشارلوت كورداى . وقد قيل فى ذلك الحين إن هذا الرسام الذى لا ضمير له ولا كرامة ( كذا وما أنا إلا ناقل ) قد دنس ريشته بتصوير أوغاد الثورة ، بعد أن شرفه الملوك بنقش صورهم ! ! ولكن دافيد كان طوال حياته مفلوكاً متصعلكاً ، لا يبالى شيئاً فقد رسم صورة مارى أنطوانيت وصورة جوزفين بوهارنيه ، وجمع بين اللوحتين فى بهو مرسمه وقال لصديقه جوراندى « هاك صورتى داعرتين ممتازتين ، الأولى أوصلتها العظمة الامبراطورية إلى الفجر والفسوق ، والثانية أوصلها الفجر والفسوق إلى العظمة الامبراطورية » وقد نقلها جوراندى إلى رجال الحكم وإلى ذلك الداهية تاليران ، فهز كتفه وقال :

« دافيد قالها ، وأنت تنقلها إلىّ ؟ علام تريدنى أن أفعل به ؟ إنه مفتن ، وكل مفتن مجنون ، أترانى أقدمه للمحاكمة . إن عهد فوكييه دى تنتفيل قد انتهى ، المحكمة الثورية قد غلقت أبوابها ... ولكننى أستطيع أن أعمل شيئاً يسرنى ويسره ، أى دافيد ، وهو أن ...

فقال له جوراندى : ما هو ياموسيو تاليران ؟

فقال : سترى عما قريب . ثم صرفه ولم يكد هذا الصديق الخائن يبلغ باب الديوان ، حتى أمر تاليران بالقبض عليه بتهمة التجسس . . لقد مرت

هذه الخواطر برأس أرنست كنزلو الابن الطبيعى لزوج الكونته إيزابيل دى كابيت فى هيأة ربة الصيد « ديانا » وعليها سارية صفراء ، وفى يدها قوس ، وعلى جبينها هلال ، وحولها كلاب تثب وتمرح . وكانت هذه الصورة قد نقشت أيام كان المشاق الملوكيون يترددون إلى ربة الصيد العذراء ( إيزابل ) فيلقون عندها منزلة وزلفى .

وكما أن الالهات لا يَشِبْنَ ولا يهرمن ، بل ينعمن بصِبًا دائم ، وشباب سرمدى ، فكذلك ما برحت هذه الإلهة ( الكونتس ايزابل ) إلى يوم وفاتها تعتقد أنها لم تكبر قط ولا كان للزمن أدنى سلطان على شبابها ، وهكذا لبثت طول عمرها ترى أن الصورة لا تزال تحكى حسنها وتمثل جمالها

كان أرنست كنزلو يريد الوقوف على سر مولده ، وكانت السيدة تريد الوقوف على سر مقتل زوجها ، الذى كان الفتى بسببه سجيناً . بعد أن سبق أرنست كنزلو إلى حجرة السيدة واسطة خادم الغرفة ، وانتظاره هنالك المدة التى تقتضيها مراسم التشريفات وآداب الزيارات ، تنزلت الإلهة «ديانا» إلى الظهور للفتى ، فجاء يتقدمها زنجى أسود فى زى الأتراك ، أحمر الحذاءين فى عنقه طوق من الفضة منقوش عليه شارة الفيكونتس ، وهو يحمل وسادة السيدة ثم تبعته وصيفتها وجاء بعد ذلك طائفة من كلاب الصيد ينبحن ويمرحن أمام الصائدة ذات الجلال والعظمة . ثم أقبلت السيدة الكونتة ذاتها تنثر صنوف الطيب الغالية ، وفنون العبق والشذا ذات اليمين وذات الشمال . وما زال أرنست كنزلو يذكر منذ طفولته أَرَجَ المسك الذكى الذى كان يفوح ويتضوع من أردان زوجة أبيه

وكما أن الأفق الغربى يزداد حمرة كلما ازدادت الشمس دنواً من المغيب ، فكذلك كنت ترى السيدة الأرملة يزداد خدها حمرة كلما ازدادت دُنواً من أجلها ، فلقد كان وجهها يتوهج بالدهان القرمزى الذى كان يضاعف وهجه بياض مايجاوره من الطلاء وكانت تلبس من الشعر ذلك النمط المجعد المسلسل الذى كان مألوفاً أيام الملك لويس الرابع عشر وكانت عيناها تبرق من وسط هذا البناء العجيب المركب من شتى أنواع الدهان والصبغة والطلاء . وهى ألوان من الأكاذيب . وإن البيت الذى يحل فى وسطه هؤلاء السادة والسيدات ، لجدير بألا يضم بين أكنافه إلا مرائين منافقين ، لاهم لكل منهم إلا أن يكذب على صاحبه ويظهر له غير حقيقته . فالزوج يكذب كلما استقبل الأضياف بوجه باش قد ارتسمت عليه ابتسامة المداراة أو المجاملة ، والزوجة تكذب وتغضى على القذى وتسيغ الشجى وتظل طول حياتها فى كذب مستمر . تكذب على زوجها وشريك حياتها وقسيم روحها ، وتكذب إذا أمرت طفلها الصغير باحترام أبيه العزيز ، وتكذب إذا أكدت لأبيها أنها فى هناء تام وعيش سعيد ، والخدم أيضاً يكذبون كلما تظاهروا بالخشية والخشوع وهم ماثلون وراء كرسى مولاهم ، وكلما تغافلوا عما يقع من النزاع تحت أعينهم . وكذلك يقضى القوم حياتهم من مطلع الشمس إلى موعد النوم فى كذب ونفاق ، ثم ترى أدعياء الحكمة يمتدحون ذلك الرياء الأبدي ، ويسمونه مراعاة لآداب المعاشرة واحتفاظاً بقواعد المجاملة . أما الصدق والصراحة وقول الحق فليست مثلا صالحة لحسن المعاشرة ولا قدوة طيبة لاستقامة المعيشة ، وبسبب هذا

للتفاق وقعت أغرب حوادث هذه القصة فان الكونت دى كابيت وهو فقيد الكونته إيزابل وبعلها كان قد استقبل فى داره مركيز ديلامور وضافه وأكرم وفادته أياما طوالاً وهو يعلم أن هذا المركيز الماجن قد انفصل عن زوجته وقد وقع له كثير من الحوادث التى لها مساس بالعرض والشرف ، وكان السبب فيها النساء كما هى العادة .

وقد لحظ الفيكونت كابيت حديثاً دار بصوت خافت بين ضيفه وبين قرينته إيزابل ، فلما بغتهما رب الدار ( الكونت كابيت ) انتهر زوجته قائلا : « قبحك الله أيتها الأفعى الصغيرة ، أخرجى من الغرفة ! »

فصاح المركيز ديلامور قائلا :

إنى مخبرك يا كونت عما قالته لى زوجتك ، ويعلم الله أنى لا أكذب فى حرف واحد منه . لقد تضرعت إلي ، وعيناها مملوءتان بالعبرات ، فى الاقلاع عن ملاعبتك ألعاب الزهر أو الورق ، وأنت أعلم وأدرى هل ذلك السؤال فى مصلحتك أو فى غير مصلحتك

فقال الكونت كابيت بصوت يابس جاف : « لا شك أنه كان فى مصلحتى يا مركيز ! ولا شك فى أنك مثال الانسان الكامل ، وإن الدنيا لتعلم أي قديس طاهر أنت !

فقال المركيز : لست بقديس ، ولست أنت شيطاناً ، ولكن امرأتك ملاك

فقال الكونت : والله لأحاسبنك على هذا

فاعترض المركيز ديلامور قائلا : حقاً يا كونت إن المصاب فى إبهام قدمه بالنقرس ليعجز عن الجرى وراء نساء غيره .

وبعد يومين أعلن ماركيز ديلامور عزمه على الرحيل ، وكان مضيفه الكونت أثناء ذلك يعامله بتأدب متكلف متصنع ، لا شك أنه يخالف ما هو معهود فيه من الصراحة والتبسط ورفع الكلفة ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الظن بأن هذين النبيلين قد افترقا على غير الصداقة والاخاء

ولكنهما افترقا على ضغن كمين ، وحقد دفين ، ونار أشعلتها الغيرة المحرقة . فان الغيرة متى تنبهت لم يكن فى طاقة الأفيون أو المرفين ، بل ولا فى طاقة كل ما حوى الشرق من المخدرات والمسكنات أن تلطف حدتها أو تطفىء جذوتها

فقد اجتمع الكونت والمركيز وانتحلا سبباً للقتال تافهاً عقيب العشاء والمسرح واللعب بالورق . فنادوا على مركبات تسعهم وأصدقاءهم وشهودهم ، وهمسوا فى آذان السائقين بالانطلاق إلى بستان رأس الذهب — يارك تيت دور — فلما بلغوا ذلك المكان نزلوا إزاء حانة — فولى كابيير — وكان الوقت منتصف الليل ، وقد هدأ الناس فى مضاجعهم ، ولم يبق من الأنوار إلا أشعة قليلة تنبعث من نوافذ بعض المنازل . بيد أن الليل كان زاهي النجوم ، والسماء صافية الأديم ، ولم يكن المتنازعون يحتاجون إلى أكثر من هذا لقضاء وطرهم الوبيل ، فدخلوا البستان ولبث السائقون في خارج السور يحرسون البوابة مخافة أن يزعج الاجتماع بعض الناس فانه لم يمض أكثر من دقيقتين حتى سمعت صيحة من السائقين الواقفين خارج البستان يدخنون « شبقاتهم » ويتكئون على السور ، وهم يراقبون سير النضال فى داخله ، فعلم ارتست كنزلو من تلك الصيحة أنه قد وقع خطب جسيم ، فدار ملتفتاً ثم انطلق يعدو

إلى حيث وجد الكونت كابيت (زوج الكونتس) صريعاً على الأرض ، وكان الماركيز ديلامور واقفاً عند رأسه يقول بصوت أجوف : « هل أصابك جرح بليغ يا كونت ؟ »

فقال الكونت وهو طريح فى مصرعه :

— أحسبنى بين يدى المنية

فقال الماركيز ديلامور الذى أصاب من الكونت كابيت مقتلا : لا قدر الله ! لا أحسب الأمر كما تظن ! إنى أخبرك والله على ما أقول شهيد : بأنى كنت عازماً على التماس عفوك لو أنك أعطيتنى فرصة لالتماسه . إن سيدتى الماركيزة بريئة من كل ..

فقال الفيكونت المسكين وقد نهض متحاملا ، واتكأ على مرفقه : صه صه ! إن النزاع الذى بيننا لا يتعدى هذه الوريقات ، نعم هذه الوريقات الملعونة (مشيراً إلى أوراق اللعب) وهنا وقع مغشياً عليه، فاستحوذ الرعب على الجميع وحسبوه قد فارق الحياة ، ولكنه لم يكن مات فنقل إلى أحد الخانات العامة ليلفظ أنفاسه الأخيرة

وهناك أشار إلى الجميع إشارة ضعيفة بترك الغرفة ثم قال لارنست كنزلو :

إذن فانصت إلى اعترافى وأنا على فراش الموت

فسألته الكونتيس النبيلة : فماذا قال لك ؟

قال لى : إنه أبى، وإننى ولدت له من امرأة من غمار الشعب ، وهأنذا أطلعتك على ملابسات ولادته ، فأطلعينى على سر مولدى . فصاحت الكونتيس : أشهد الله أنى بريئة من ذلك الاثم فقد حل بك وبأمك رحمها الله ظلامة جسيمة ، وإن أباك الخبيث هو الذى . . . فقال ارنست متمما : الذى جلب هذا العار على أسرتنا . . . أعرف ذلك حق المعرفة ولا أريد تكدير صفاء أحد قط ولا إقلاق راحة إنسان ما . فان ورثة الألقاب والثروة الآن كانوا أكرم أهل ودى ونعمتى وما تعمدونى بسوء قط وحاشاهم

فصاحت الكونتة إزابيل : إننى يا ولدى لم أعرف الحقيقة إلا قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد زادنى ألماً أنك سجنت بسبب مصاحبته فى تلك الليلة ولا بد أن يكون بعض النفس عرفوه من سبيل الاعتراف

فقال أرنست : وعليك الآن يا أمه ... يا زوجة أبى الكريمة أن تكشفى لى عن سر مولدى ، فدقة بدقة ، وسر بسر !

فقالت : لقد فحصت عن أمر والدتك ، لأعرف أهى على قيد الحياة أم لا ؟ وقد خبرنى الأب كابان فى آخر زفرات حياته أن والدتك ماتت منذ أعوام عدة ، ولا شك عندى فى مقاله . فقال أرنست : لست أدرى أفى طاقتى إثبات الزواج الذى عقد بين أبى وأمى ، على أنى ما كنت فاعلا لو استطعت ، إذ لا أحب أن ألوث اسمك بالخزى ، أو أسوق الهم والكمد إلى من أكرمونى . فاعلمى أيتها السيدة أن ابن أبى لن يضاعف ما نالك من أذى والده ، فانى أرمانه ، وامنحينى برك وعطفك فهو كل ما أرجو لديك ، ولن ترينى أذكر ذلك الأمر بعد الساعة

فصاحت الكونتة بالانجليزية ، وكان دأبها أن تنطق بها كلما اهتاجت عواطفها ، لنشوئها فى بلاط الملكة حنة ، ملكة انجلترا أو إيرلاندا

« والله إنك لشريف الطبع كريم السجية »

فقال أرنست منحنياً فى خشوع وتخاضع : « ذلك يا سيدتى البارة ما يقتضيه مقامى . إن فى الدنيا أناساً

طالما وعدت أن أبذل فى سبيلهم روحى جزاء ودهم وحنانهم ، أفيليق بعد ذلك أن أعاديهم وأشاحنهم من جراء لقب ؟ وماذا على أن يكون ذلك اللقب لى أو لهم ما دام فى الأسرة ؟

فأجهشت الكونتيس بالبكاء ، وضمت أرنست إلى صدرها وأغدقت عليه من النعم ما أنساه ألم الذكرى والتفكير فى والديه وهما الكونت العظيم ، و « السوقية » التى حملته فى أحشائها ووضعته ولم تستطع إرضاعه ، ولا العناية به ، ولم يقع بصره عليها وهو يدرك أنها أمه . ثم قالت له الكونتيس : إعلم أن الأب لامبير المعتكف الآن فى دير نوتر دام دى فورفيير ، بأعلى هضاب المدينة هو الوحيد العالم بمصير المرحومة والدتك ، وقد وكلنا إليه تهذيبك فى الصغر ، فأقم ها هنا معنا أياماً ، حتى تستجم من وعثاء السفر

فقال أرنست السجن ... أو السفر ، شىء واحد ثم ندعوه إليك ، فيقص عليك أنباءه الصادقة

* * *

ولكن أرنست : لم يجد صبراً فاستأذن الكونتة وسار قدماً إلى الكنيسة ، بعد أن خلع ثيابه وتزيا بأزياء الصعاليك الذين وصفوهم فى الثورة بعديمى السراويلات « صان كيلوت » ولما بلغ باب الدير واستأذن على الكاهن العتيق أخبره بكل ما وقع وأنهى إليه أنه قد اطلع على أسرار أسرته وصمم على عدم إفشائها ، فأكبره ذلك فى عين الكاهن ، لما أبداه من الايثار وإنكار الذات . وقال فى نفسه عجباً إن فى هؤلاء المجهولى الأصول ، وأولاد الطبيعة والأبناء غير الشرعيين من يسمون بمكارم أخلاقهم درجات فوق أدعياء الحسب والنسب الذين تخر عظامهم سوس الكبرياء والأثرة وحب الذات . فهنا الفضل راجع للأم حتماً ، لا للأب الذى عرفته خبيثاً ما كراً

ثم اعتنق الكاهن المؤدب تلميذه القديم وجعل يهتف بكثير من عبارات الاعجاب والاستحسان قائلا : إن أرنست فتى شريف القلب نبيل النفس وإنه يفتخر بتلميذه وصديقه وقال له : إنه كان يود أن يهديه إلى الكنيسة الحقة الواحدة التى ينتمى إليها الأب وأن يدمجه فى سلك أشرف الجيوش التى حارب فى صفوفها الانسان — يعنى طائفة اليسوعيين التى تضم بين جنودها ( كما يزعم الأب لامبير ) أعظم الأبطال الذين دبوا على أديم الغبراء — أبطال شجعان لا يهابون شيئاً ولا يعجزون عن احتمال شىء ، يقابلون الجيش العرمرم بقلوب أيدة ولا يخافون لقاء الموت مهما أفزعت صوره — جنود بسلاء ، قد حازوا من الانتصارات مايكسف لألآؤه أبهر فوز أحرزه أبرع القواد ، وغزوا المدائن والشعوب حتى خرجت الأمم ركعاً وسجوداً بين أيدى لواتهم المقدس : الصليب ! واكتسوا من برود المجد وأكاليل النصر ما هو أسنى وأبهى من أشرف ما تقلده أمجد الفاتحين فى الأرض ، تيجان من النور السرمدى ، وهالات من البهاء الأزلى ، وآرائك فى أرفع مقامات الفردوس

فشكر أرنست لصديقه القديم ومؤدبه ومعلمه الأب لامبير اليسوعى ، حسن رأيه فيه وإن كان لا يشاركه فى تحمسه لمذهب الجيزويت ، ثم قال وقد أمسك يد صاحبه :

« لقد فكرت فى هذا الأمر أيضاً ياأبى العزيز ، نعم لقد فكرت فى هذه المسألة وحللتها لنفسى ،

كما ينبغي لكل امرىء أن يفعل ، وإني لباذل جهدي في سبيل الحق والخير ، وإني لأعطي الله من حُسن الطاعة وصدق الايمان بحسب طريقتي مثلما تعطيه أنت بحسب طريقتك .. إني لا أستطيع التصديق بأن القديس فرنسيس جافير قد عام فوق اليم بعباءته ولا أنه أحيا الموتى — لقد حاولت جهدي تصديق ذلك فلم أفلح . ولقد أوشكت ذات مرة أن أصل إلى حد اليقين ولكني لم أستطع . فدعني ألتمس الحق وأطلب الهدى وأسأل الله الخير من الطريق الذي أنتهجه لنفسي

فجعل القسيس يتنهد لتمادي تلميذه في الجهل وإصراره على الضلال . ولكنه لم يمنعه محبته وعطفه . وكان توثق عرى الصداقة بين الأب لامبير وأرنست كنزلو قد شجع هذا الأخير على سؤال صاحبه عن طرف من تاريخ أمه المسكينة تلك التي طالما كان يهتف بها في أحلامه والتي لم يَرها قط في حياته . وشرح الفتى أرنست للأب لامبير ما جرى قبيل مقتل والده وبعده ، وذكر له العهد الذي قطعه لذكرته والأسرار التي وقف عليها ، ثم توسل إلى الأب لامبير في إطلاعه على ما يعرفه من أنباء تلك المرأة المسكينة التي انتزع من أحضانها

فنهض الأب الجيزويتي وتزيا بزي « أحد مندوبي الشعب » كوميسير دي بيبل — وهو يقول: اعلم يا بُني أن كل أزياء التنكر جائزة في سبيل الدين والولاء والصداقة . وكل أصناف الملابس جائزة — حمراء كانت أو سوداء لا فرق بين الشارة المثلثة الألوان التي أحملها وأنا أمقتها ، وبين الشارة السوداء والشارة البيضاء ، كما لا فرق بين القبعة المحلاة بالوشي والقلنسوة ذات الرفرف العريض التي تلبس فوق الناصية المجزوزة أو الضفائر المتهدلة

وانحدر القسيس وصاحبه الفتى أرنست كنزلو من أعالي فورفيير إلى ضفاف نهر السون ، الذي يجري للتق له مع نهر الرون في طرف المدينة الغربي حتى بلغا أقصى حي كروا روس وجادة جيراف ، إلى الشارع الذي كان يقيم فيه أبوه والذي ولدت فيه أمه على ما يعلم . ثم قال له: كانت أمك من أهل هذه هذه المدينة ، ففي سنة ١٧٧٥ قدم أبوك ههنا في حاشية الملك السابق فتعرف أبوك ( وكان لا يزال ضابطاً في الجيش ولم يرث لقب الكونتيه الرفيع ) بأمك وطاردها حتى أوقعها في حبائل غرامه وقد أخبرني في كثير من أحاديثه ، وكنت أشعر يومئذ بأن الواجب يقضي عليّ بكتمانها أن تلك المرأة كانت رحيمة القلب كثيرة الصلاح ، جمة الوفاء رقيقة العواطف ، وله الحق وله العذر في أن يخجل ويستحي من مسلكه في معاملتها ، وكثيراً ما أعرب لي عما يقدح في قلبه من صريح الندم ، وما يحز في ضميره من خالص التوبيخ على ما سامه إياها من سوء العذاب كما كان يحدثني عن صفاتها الحميدة وخصالها الكريمة بلهجة تنم عن الحنان والمحبة . وقد اعترف لي أنه كان يفرط في إساءتها وأن حياته يومئذ كانت سلسلة من مخازي الفسق والمقامرة والفقر . وفي ذلك الوقت حملت بك أمك . فلما انكشف السر لوالديها لعناها وطرداها ولكنها لم تعنف من جلب لها التعاسة والخراب ، إلا بعبراتها المنسكبة من مداممها الأبية وبما ارتسم على محياها من آيات الشقاء . وكان اسمها جرترود كنزلو . فأنت منتسب إلى جدك لأمك . وهذا هو السر في حملك هذا اللقب الذي لم تكن تعرف علة اقترانه باسمك . ولم يمض على مولدك قليل

حتى مَلَّ عشرة الفتاة التى سلبها عفتها وهناءها .
ووصل إليه فى ذات يوم مبلغ من النقود أرسله إليه عمه مولاى الفيكونت السابق ( الذى ورث لقبه بمدوفانه ) فادعى أن لديه أشغالا تضطره إلى الرحيل إلى باريس ثم أكد لأمك المواثيق بوَشْكِ إيابه ومن ذلك العهد لم يرَ وجه المرأة المسكينة قط

فتنهد أرنست كنزلو الذى جمدت عيناه ، وكاد أن ينفجر من الغيظ : تبًّا لهؤلاء الأشراف ... وتبًّا لرجال الكنيسة الذين يمجدونهم ويعينونهم على التمادي فى الفساد . ألم يكن فى مقدورك أيها الراعى الصالح أن تنصح له بالعقد على أمى تلك المسكينة التى ذهبت ضحية غروره وشهواته؟ وهأنت ذا تتفجع عليها وكنت تملك إقناعه بتصحيح موقفه أمام الله والكنيسة ، دع عنك المجتمع والانسانية والعقل المسكين ...

فصمت القسيس ، وأطرق قليلا ثم قال :

— لقد أقر لى أولا فى عرض اعترافه وثانياً فى عرض الحديث بين يدى عمتك زوجته — الكونتس دى كابيت — وإلا ما كنت مذيعاً لك ما أنا اليوم ذاكره — أقول إنه أقر لى بأنه عند قدومه إلى باريس أرسل اعترافاً مزوراً إلى المسكينة جرترود ( والدتك ) مخبراً إياها بأنه كان قبل اتصاله بها قد تزوج من امرأة أخرى ، وبأن اسمه ليس برتران وهو الاسم الذى عرفته به وبأنه على وشك مغادرة أوربا إلى مزارعه فى قرجينيا ، حيث ما برحت لأسرتكم ضيعة أقطعكم إياها الملك لويس الرابع عشر وبعث إليها مع هذا الاعتراف مبلغاً من النقود هو نصف آخر مائة من الجنيهات التى كانت معه ثم سألها الصفح عنه واستودعها الله . وما خطر قط على بال والدتك المسكينة أن ما جاء فى هذا الخطاب من الأنباء قد يكون مخالفاً للصدق شأن سائر أحواله معها . وقد طلب إليها أحد الشبان الذين من طبقتها — وكان يعرف تاريخها — أن يتزوج منها ويتبناك ويسميك باسمه ، ولكنها أبت . وتعرضت بذلك لغضب أبيها وسخطه وكان قد آواها فى بيته حيث ما برحت تعاني منذ سقوطها سوء المذلة وقسوة المعاملة، وحيث كانت لا تجرؤ على رفع رأسها استكانة واستخذاء ، فرثت لحالها بعض السيدات الصالحات من معارفها ورتبت لها معاشاً يسيراً فذهبت الفتاة إلى أحد الأديرة ، وعهد بك إلى إحدى الحاضنات إذ كانت أمك من شدة الضعف والهزال بحيث لا تستطيع إرضاعك . فهل لك الآن رغبة فى مشاهدة الصليب المنصوب على لحد المرحومة والدتك فى مقبرة الدير ؟ إن رئيسة الدير من أتباعى الأقدمين ، وهى لا تزال تحن إلى ذكرى الراهبة مريم ماجدلين ، وهو الاسم الذى اتخذته والدتك فى رهبانيتها ، أما حقيقة اسمها فجرترود كنزلو

* * *

فى أصيل يوم من أيام الربيع الصاحية المشرقة ذهب ارنست كنزلو إلى مقبرة الدير فأبصر بين آلاف من الصلبان السوداء وأفيائها الممتدة على الآكام الخضراء ذلك الصليب المخصوص الذى تضطجع تحته أمه فى مثواها الأبدى . لقد تسمى بهذا الاسم ( أعنى مريم المجدلية حوارية السيد المسيح وخادمته التائبة ) كثير غيرها من أولئك البائسات الراقدات في تلك المضاجع وما هو إلا الشعار الذى وسمتهن به الأحزان والرمز الذى يشير فى لطف ورقة إلى ما كابدنه من الحب والجوى .

وجعل الفتى ارنست كنزلو يتخيل أمه وقد راحت تسكب الدمع تحت جنح الدجى وهى راكعة بين يدى ذلك الصليب الذي دفنت تحته أشجانها وهمومها ، فخر جاثياً وأنشأ يتلو صلاته وما به لوعة ولا أسى وإنما هى رهبة ملكت عليه مشاعره (فقد كان لا يعهد من أمه شيئاً حتى ذكراها ) ورحمة ورثاء لما كابدته تلك الروح الرقيقة فى حياتها من الآلام التى حضرت بها إلى هذا الصليب حيث استعاضت بهذا العروس السماوى من الذى فتنها واستغواها ، والغادر الذي هجرها وأشقاها .

وكان على مقربة من الفتى راهبة فى قناعها الأسود راكعة بجانب مضجع إحدى الراهبات الراقدات ...

وكان الواقف هنالك يلمح من وراء جدران القبرة شرفات مدينة ليون الزاهرة ومناراتها ويشيم ومضات ولمحات من أمور الدنيا ومعترك الحياة فتنهد أرنست وبكى ثم قال : ألا رعاك الله أيها الموت وحياك ! أنت ملجأ الراحة الصامتة ومستقر السكينة العميقة ، لا تنالك أيدى العواصف ولا يزعج سكونك اضطراب القلاقل ! وكذلك خرج من القبرة وإنه ليشعر كمن كان ماشياً فى قرار البحر العميق يتلمس مواطىء قدميه بين العظام المتناثرة من هياكل السفن المحطمة.

وعاد أرنست كنزلو أدراجه إلى المدينة ، وقد اشترى سراً بسر بعد أن اهتدى إلى قبر تلك الأم التى لم يحظ يوماً بندائها قائلاً « أماه ... »

محمد لطفى جمعة


## مؤلفات
### الأستاذ محمد كامل حجاج

ص
٤٠ بلاغة العرب جزءان ( مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب )
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان ( متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان )
١٨ نباتات الزينة العشبية ( محلى باحدى وتسعين صورة فنية )
١٥ Les Plantes Herbacées ( محلى بنفس الصور السابقة )

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

يصدر قريبا

## حياة الرافعى
### للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :
شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

# الملوح (*)

للقصصي الروسي فسفولد ميخائيلوفيتش كارشين

بقلم الأديب السيد فخري شهاب السعيدي

كان « سيمن إيفانوف » حارساً على خط من خطوط السكك الحديدية ؛ وكانت المسافة بين مسكنه وبين أقرب المحطات إليه — قرابةَ سبعة أميال ؛ ولم يكن حول مسكنه ذاك سوى دور زملائه الحراس الآخرين ، وسوى مدخنة سوداء سامقة في الفضاء لطاحونة كبيرة شيدت قبل عام على بعد ثلاثة أميال منه

كان « سيمن إيفانوف » هذا مريضاً مقعداً وكانت له سابقة الاشتغال في خدمة ضابط في الجيش لازمه في كل الحملات التي اشترك فيها ، ونالته من ذلك ضروب الأذى — فانه كثيراً ما جاع ، وإنه كثيراً ما تعرض للهلاك ، وإنه كثيراً ما قطع عشرات الأميال سعياً على قدميه في زمهرير الشتاء القارس ! ولكن الله تعالى قد أنجاه من كل هذا ..

وكانت الفرقة التي كان فيها سيده في مقدمة الصفوف المحاربة التي كانت تكافح الأتراك مدى أسبوع كامل لم تفتر خلاله الحرب ، أو ينقطع إطلاق الرصاص . وكان — هو — يحمل جرايات سيده من شاي أو طعام إلى مقره في خنادق القتال مجتازاً بها مسافة طويلة في مساحة الحرب التي يصم الأذن فيها أزيز الرصاص فكان ذلك يروعه وربما أبكاه ! ولكنه ما كان يتوقف عن المضيّ حاملا إلى سيّده ما جاء له به من مطبخ الجيش . وكان ذلك منه مدعاة إلى ابتهاج الضباط فقد كان الشاي الساخن في متناولهم متى اشتهوه !

عاد « سيمن » من الحملة سالماً لولا أن كان أصابه مرض مؤلم في يديه ورجليه ومنذ ذلك الحين لازمته التعاسة ، فقد وجد عند أوبته أن أباه الشيخ قد توفي ، وأن ابنه الصغير قد لحق بجده ، وأنه لم يبق غيره وغير زوجه في الدار ... ذلك إلى أنه لم يكن يكتب له التوفيق في عمل ما ، وكيف — ترى — يكون التوفيق وهذه أطرافه قد شلّها الألم المبرّح فهي لا تفيده في الحرث ؟

ولم يصبر « سيمن » على الحياة في قريته كذلك : بائساً ، مقعداً فقيراً ؛ بل ذهب هو وزوجه يبحثان عن « السعادة » في أماكن

---

(*) الملوح : كلمة استعملناها لمن يعين لارشاد سائق القطار بالتلويح له بعلمين صغيرين مشيراً عليه بتخفيف السرعة أو الانطلاق حسب مقتضى الحال — ويقابلها بالانكليزية « The Signal »

أما مؤلف هذه القصة فأديب روسي نابغ ، من السائرين على مذهب « تولستوي » والمتأثرين بأسلوبه وأفكاره . ولد سنة ١٨٥٥ وكانت له في الجيش الروسي خدمات أثرت في أدبه القصصي إذ انتزع من حياة الجيش تلك صوراً جميلة رائعة لقصصه التي كتب ، والقصة التي نقدمها للقراء اليوم تريهم طرفاً من تصويره تلك الحياة . ثم أصيب باضطراب في أعصابه جعله ينقل إلى الناس بعض ما كان يعانيه من ذلك الداء الوبيل في كثير من قصصه التي كتب في تلك الفترة من عمره . وقد مات « كارشين » منتحراً وهو ما يزال في ميعة الشباب سنة ١٨٨٨

أخرى ... لقد ذهبا يبحثان عن عمل فى سكة القطار فى « خاركوف » و « الدون » ولكن الحظ لم يواتهما أينما ذهبا ؛ فاضطرت زوجه إلى أن تكون خادماً ، وظل هو يكمل رحلته فى التفتيش عن عمل له ... وإنه لجاد فى سفره إذ صادف مدير إحدى محطات القطار الصغيرة ؛ فتفرس فيه ، وأخذ يثبته وينفيه كأن له به سابق معرفة حتى ذكر من يكون هذا الرجل ... إنه من ضباط الفرقة التى كان فيها سيده !

— ألست « إيفانوف » ؟

— أجل . . أنا هو ياسيدى .

— وكيف جئت إلى هذه المحطة ؟ !

فقص « سيمن » قصته عليه .

— وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— لست أدرى يامولاي !

— ماذا تعنى ! أمجنون أنت فلا تدرى أين تضرب فى الأرض ؟

— هو ما تقول يامولاى ، إذ ليس لدى مأوى ألجأ إليه . وإن على أن أمضى فى التفتيش عن عمل مهما كان نوعه يا صاحب السعادة .

فنظر إليه مدير المحطة لحظة ، وظل ساهماً ، ثم قال له : —

— إسمع ياصديقى ، ابق فى المحطة الآن ؛ أنت متزوج فيما أعتقد فأين زوجك ؟

— أجل ، هذا صحيح ؛ سيدى أنا متزوج ، وزوجى فى « كرسك » فى خدمة تاجر هناك .

— حسن ، فاكتب إليها تستقدمها لتوافيك إلى هنا ، وسأحصل لها على بطاقة سفر مجانية . . إن أحد حراس « الخط » سيخلى مكانه ، وسأكلم رئيس الشعبة فى شأنك .

— أنا شاكر جميل صنعك ، مولاى !

... وكذلك ظل « سيمن » فى المحطة يساعد المكلفين باعداد طعام المدير طوراً ، وبقطع لهم الخشب تارة ، أو يكنس الساحة والبلاط أحياناً حتى قدمت — بعد أسبوعين — زوجه تخرج لاستقبالها ، وحمل لها أمتعتها فى عربة يد صغيرة إلى مقرها الجديد .

كانت داره هى مقر حراسته الخط وملاحظته القطار ؛ وكانت داراً جديدة البناء دافئة ، هذا إلى أن باستطاعته أن يحتطب مايشاء ، وأن يزرع أرضاً صغيرة حول داره ... وإنه ليفكر الآن فى شراء بقرة وحصان ليستفيد منهما فى تلك الأرض

وأُعطِىَ « سيمن » كل ما يحتاج إليه فى أداء وظيفته : علماً أخضر وآخر أحمر ، ومصباح نفط ، وبوقاً ومطرقة ومفتاحاً يقوى به مسامير الخط ، ومكنسة وكلاّباً ، كما أعطى كتابين صغيرين فى أحدهما قوانين استعمال العلمين وفى الآخر مواعيد وصول القطار ... وما كان « سيمن » يستطيع أن ينام فى بادئ الأمر ليلا لأن استظهار مواعيد القطار كان موضع اهتمامه وشغله ... فلو أن قطاراً سيمر بعد ساعتين كان ينهض له « سيمن » فيصلح من الخط شيئاً ، ولو بدقات بسيطة عليه من مطرقته ، ثم يجلس على مصطبة حيال داره يرقب مقدم القطار ، فان استعصى عليه ذلك بالسماع تحسسه باهتزاز الأرض أو ارتجاف خطوط السكة . وحفظ قواعد استعمال العلمين عن ظهر قلب بعد صعوبة قاساها

كان الفصل فصل الصيف ، والعمل فى الصيف

يسير ، فليس ثمة ثلج يقتضيه تنظيفه . . . بل كل ما هناك بضعة قطر تدرج على ذلك الخط مرات قليلة في اليوم ؛ فكان سيمن يخطر فى مصامته[1] المسؤول عن حراستها مرتين فى اليوم : يربط هذا الخط ، ويقوى ذلك المسمار ، ويعدّل تلك الصابورة ويلاحظ أقنية الماء ، ثم يعود إلى داره ليشتغل فى زراعة أرضه ؛ ولكن أعماله فى الدار كان يعطلها شئ واحد هو طلب « الاذن » من ملاحظ الطريق الذى يرفع الأمر بدوره إلى « رئيس الشعبة » وقبل أن يجاب الطلب يكون قد فات الأوان ! وكان ذلك سبب تذمر « سيمن » وزوجه المستمر

مضى على مقام « سيمن » شهران فبدأ يتعرف إلى جيرانه ويتخذ له منهم الأصدقاء ... كان أحدهم شيخاً طاعناً فى السن ، تفيض الألسن بشائعة الاستغناء عنه إذ لم يكن يستطيع الخروج من داره وكانت تعينه على أداء واجبه زوجه فهى التى تلاحظ الخط وتقوم بذلك مقامه ، وهى التى تؤدى ما كان زوجها مسؤولا عنه من واجبات ... وكان الآخر شابا فى مقتبل العمر ، لفيه « سيمن » أول ما لقيه على خط السكة الحديدية حين جمعتهما المهنة المشتركة فألقى «سيمن» على الشاب نظرة ثم انحنى له وحياه فرد الآخر تحيته عليه ثم استدار يخب السير فى طريقه

والتقت زوجاهما بعد ذلك فكانت «إرينا سيمن» تبتدر صاحبتها بالتحية، وكانت الأخرى ترد عليها ثم تنصرف إلى ما كانت فيه ... وقد صادف «سيمن» زوج صاحبه مرة فسألها قائلا :

— ما بال زوجك يا سيدتى طويل السكوت ، لا يتكلم إلا لماما ؟

فنظرت إليه الشابة بادئ الأمر ثم أجابته قائلة :

— وبماذا تريده أن يتحدث إليك ؟ إن لكل امرئ شغله الشاغل ... هلا انصرفت إلى ما أنت فيه محروساً ؟

ولكن ما أن تمضي على ذلك شهر أو لواذ شهر حتى عرفا جملة من الأصدقاء هناك ... فكان «سيمن» إذا ضمته على الرصيف جلسة و«فاسيلى» تبادل وإياه الحديث عن سير حياتيهما التى يحيان وأزجى فراغه وصاحبه بالتدخين ، وكان «فاسيلى» ساكتاً أغلب وقته يستمع لأحاديث « سيمن » تارة عن قريته التى نشأ فيها ، وتارة عن أخبار الحملة التى شهد ، ثم تنتهى الجلسة بأن يختم « سيمن » كلامه قائلا :

— إنها ليست بالمتاعب القليلة تلك التى قاسيتها طوال حياتى ... إن الله لم يجعلنى ذا حظ سعيد ، ومهما يكن من شىء فانه قسم لى هذا يا أخى ... ثم ينظف « فاسيلى » غليونه من الرماد بدقة على القضبان الحديدية وينهض وهو يقول :

— كلا إنها ليست « قسمة » المرء التى تجلب له « التعاسة » إنما هم « الناس! » فليس مثل الناس وحوش ! إن الذئاب لا تأكل الذئاب ، ولكن الانسان يفترس أخاه الانسان وهو على قيد الحياة !

— كلا يا صديقى فالذئاب يأكل بعضها بعضاً ، ليس إلى إنكارك هذا من سبيل !

— هكذا خطرت لى الكلمة فقلتها ... إنهم جميعاً سواء ، فليس ثمة مخلوق أقسى من مخلوق ! ولكن لو لا أن كان فى الانسان «الشر» و«الطمع» لاستطاع أن يعيش ... إن كل فرد يتحين بك

(١) المصامة : الحدود المعينة التى لايجوز تخطيها إلى غيرها

الفرصة لينقض عليك وأنت ما تزال حيًّا فيختطف لقمتك من فمك إليه !

— لست أدرى ، يا أخى ، ربما كان الأمر على ما تقول ... ولكن إذا كان هـذا حقًّا فتلك « قسمة الله ! »

— فإن صح ما ذهبت إليه فليس لدى أحدنا ما يقول للآخر ... إنا ياهذا لو عزونا كل ظلامة إلى الله وا كتفينا بالصبر على مضض العيش فما نحن بشر ، بل أنعام ... هذا ما أرى !

ثم يستدير ليمضى دون أن يسلم على رفيقه ، فينادیه « سيمن » ويعتب عليه لهذا التهجم ، ولكن « ڤاسيلى » يجد فى السير إلى أن تنقطع عن العين رؤيته فى المنعطف فيعود « سيمن » إلى زوجه ويخبرها بأن جارها هذا لايعدو كونه وحشاً فظاً !!

على أن هذا الحديث لم يكن ليجر إلى المشادة فسرعان مايعود الاثنان إلى صفائهما ويجلسان حيث كانا من قبل ويبحثان ما كانا يبحثان فيه فترى « ڤاسيلى » يقول :

— حسن يا أخى ، فلولا هؤلاء الناس ما كنا نأوي إلي هذه المساكن التى تنجزفيها واجباتنا ...

— وما اعتراضك على هذه الدور ؟ إنها ليست بالرديئة ... إنك تستطيع أن تعيش فيها

— نعم تستطيع أن تعيش فيها ، نعم ! ذلك رأيك أنت أيها الشيخ ... الغر ! ولكن خبرنى بربك عن نوع هذه المعيشة التى يعيش الفقراء سواء فى دور الحراسة هذه أو في أى ملجأ آخر ... حدثنى عنها كيف تكون ؟ إن « مصاصى الدماء » سيأكلونك وأنت ما تزال على قيد الحياة ! سيستنفدون آخر قطرة من دمك فاذا لم تعد صالحاً لهم رموك كما ترمى فضلات الذبائح للخنازير ! ألا تحدثنى عن أجرك ؟ إنك لتتناول اثنى عشر روبلاً فيما أظن . وأما أنا فأزيد عليك روبل ونصف روبل فكيف كان هذا ؟ فى حين أن الشركة قد فرضت للواحد منا خمسة عشر روبلا إلى جرايات للوقود والاضاءة ؟ كيف جعلت اثنى عشر روبلا لك وثلاثة عشر روبلاً ونصف روبل لي ؟ من رتب هذا المرتب ؟ أجبنى على هذا ثم قل إن الواحد منا يستطيع أن يعيش ! إنك تفهم هذا على أنه حساب روبلات زهيدة ! ولكن الأمر ليس كما تظن ... فلقد كنت بالمحطة فى الشهر الماضى حين مر « المدير » تحفه ضروب التجلة والاحترام ، وكان راكباً سيارة خاصة فنزل منها ووقف على الرصيف ... دعنى ... لن أبقى هنا أبداً سأهيم على وجهى :..

— إلى أين يا أخى « ستيفانيش » ؟ إن لك هنا سكناً يقيك البرد ، وإن لك قطعة أرض وزوجاً تقوم بخدمتك !

— آه ! قطعة أرض ... أنك لا تبصر غيرها ! ولكن ما الذى أفدته منها ؟ إنها خلاء حتى من الشوك ! لقد زرعتها في الربيع الماضى بشىء من الكرنب أفتدرى ماذا قال الملاحظ ؟ لقد جاء سكران يعربد :

— أى شىء فعلت ؟ هل استأذنت أحداً ؟ هل سمح لك به ؟ لا يجوز أن يبقي هذا ، ولا أثر منه بسيط ! أتدرى أنه كان يعنى نفسه أن أنفحه بضعة روبلات ... ثلاثة جميلة ... لا بأس بها !

ثم قال « ڤاسيلى » بعد أن دخن فى غليونه :

— ولولا أن تريثت ، وتحملت ، لكنت بعثت به ...

— عجباً يا أخى ... اسمح لى أن أقول إنك رجل حديد الطبع ، سريع التأثر !

— كلا، لست كما تصف ، بل إنى أتأمل الحقيقة ثم أجهر بها.. وعلى كل فسينال الملاحظ جزاءه الذي يستحق ... سأرفع شكواى إلى الرئيس ... ثم كان الأمر كما قال .. إذ رفع شكواه إلى الرئيس .

... وجاء « الرئيس » لتفتيش الخط ، فقد كان من المنتظر أن يطرأ عليهم أحد من « بطرسبورج » بعد ثلاثة أيام ، ففحص الخط لاكمال نواقصه قبل وصول ذلك الطارئ .. لقد سويت الطريق ، وأصلحت المسامير ، والعوارض واختبرت العقد بالمطارق وصبغت الأعمدة ، ونثرت الرمال الصفراء فى مفارق الطرق ... وبعثت الحارسة العجوز بزوجها المحرم ذلك الأسبوع ليجتث الأعشاب !

أما « سيمن » فقد أجهد نفسه طوال ذلك الأسبوع حتى استوى له كل شىء على ما يرام ... لقد رفا ثوبه وغسله ، ولمّع طاولته المدنية « بغبار الطابوق » حتى بدت صقيلة متوهجة ، وكذلك كان أمر « فاسيلى » الذى جد فى عمله أى جد !

... وصل « الرئيس » إلى المحطة فى مركبته الخاصة ... واندفع إلى مكان « سيمن » ، فقام إليه هذا فحياه تحية عسكرية !! . لقد كان كل شىء على ما يرام

— كم مضى عليك منذ مجيئك ؟

— كان مجيئى يا مولاى فى مايو الماضى

— حسن ... أشكرك ... من هو صاحب الرقم ١٦٤ ؟

فأجابه الملاحظ الذي كان بصحبته :

— « فاسيلى سبيريدونوف »

— سبيريدونوف.. سبيريدونوف .. آه ، أهو ذلك الفتى الذى عوقب فى العام المنصرم ؟

— نعم .. إنه هو

— حسن سنرى ، فلنمض ..

فسحب الرجال العربة وبدأت تسير ..

نظر « سيمن » إليهم لحظة ثم قال :

— لا بد أن يكون لهم شأن مع جارنا

وبعد ساعتين — انصرف فيهما « سيمن » إلى عمله — أبصر شخصاً قادماً من منعطف الطريق سائراً حذاء الخط ، وكأنه يحمل شيئاً أبيض فوق رأسه .. وتطلّع « سيمن » وأطال نظره .. فاذا به يرى « فاسيلى » ، لقد كان ممسكا بعصا فى يده ، وعلى عاتقه حزمة بيضاء ، وكان وجهه ملفعاً بمنديل

— إلى أين أيها الجار ؟

فاقترب « فاسيلى » ، وكان منظره غريباً ، ووجهه مثيراً للدهشة ، بعينيه الواسعتين الجاحظتين وحاول أن يتكلم فانفجر قائلاً :

— إنى ذاهب إلى « موسكو » إلى حيث « اللجنة »

— إلى اللجنة ؟ أكذلك ؟ .. لترفع شكواك على ما أظن ؟ ! لا يا أخى .. تناسَ ذلك .. أسقطه من بالك

— لا ... لن يكون ذلك ! يستحيل . انظر لقد صفعنى على وجهى فأدماه ! لن أنسى هذا

ما حييت ولن أدع الأمر يمر بسلام

وأخذ « سيمن » ذراع صديقه بين يديه ثم قال :

— لا بأس يا أخى ... لا بأس ؛ إسمح لى أن أقول لك إنك لن تصلح شيئاً مطلقاً

— لن أُصْلِحَ شيئاً ، نعم أنا عالم بهذا ، لقد صح قولك عن « قسمة الله » ! لن أصلح شيئاً من أجل نفسى .. ولكن علينا أن نتمسك « بالحق » أيها الصديق

— أرجوك حدثنى كيف تم هذا ؟

— اسمع ... لقد فَحَصَ كلٌّ شىء ، نزل من المركبة ودخل الدار وكنت عارفاً بعنايته بالتدقيق والفحص فهيّأت كل شيء ، وأعددته إعداداً حسناً ، وجعلته على خير ما يكون .. وهم بالخروج لولا أنى رفعت إليه ظلامتى ، فصرخ قائلاً :

— هذا تفتيش إدارى ، لا يجوز لك عرض شكواك الحقيرة هذه عليه ، هذا إلى أن هذه الأرض التى زرعت أرضٌ أميرية لاحق لك بأن تملأها قذارة بكرنبك ذاك ... ولم أستطع أن أقول شيئاً أجابهه به بعد هذا ... ثم ... ثم أهوى على وجهى بضربته التى ترى آثارها ! ولبثتُ فى مكانى كأن ذلك لى هو حُكمُ النصفة ، وقرار « العدل » ... وانصرفوا عنى ذاهبين ! وغسلت وجهى وفكرت فيما عساني أقوله لزوجى !... وانصرف « ڤاسيلى » وهو يقول :

— أترانى سأدرك العدل الذى أريد ؟!

— وستذهب ماشياً ؟

— سأسعى أن أسافر فى قطار البضاعة ، وسأكون فى موسكو غداً

ثم افترقا ...

... طال ارتقاب زوج « ڤاسيلى » عودة زوجها. إنها الآن هى التى تقوم بأعماله المسؤول عنها ليلَ نهار ! حتى مرّ فى اليوم الثالث مفتش من مفتشى القطار وكانت المحطة آنئذاك مزدحمة ، فهنا قاطرة وهناك عربة شحن ، وبقربها عربتان أخريان من عربات الدرجة الأولى . وقد شغل كلُّ هذا الزحام المفتشَ عن أن يتحرى أو يفتش ... غير أن « ڤاسيلى » مايزال غائباً الآن ... وفى اليوم الرابع لقى « سيمن » زوجة جاره فى بعض الطريق — وكانت محمرة العينين ، بادية التعب — فسألها عن زوجها : هل عاد ؟ فأشارت إليه بالنفى ولم تحر جواباً وانصرفت إلى سبيلها

* * *

كان سيمن حذق فى صغره كيفية صنع المزامير من غصون الصفصاف فكان يقتطع لباب الشجر الطريّ ويجوّفها ويثقبها من أماكن خاصة ، ثم يبرى لها « مكان الفم » فاذا تلك العصاة قد استوت له آلة يستطيع أن يوقع عليها ما شاء من ضروب الأنغام ! وكان يَسْتَغل أوقات فراغه فى صنع أمثال هذه المزامير ويبعث بها إلى القرية مع حارس من حراس قطار الشحن — له به معرفة سابقة — ويقبض « كوبكين » عن كل واحد من تلك المزامير

وكان قد مضى على مرور « المفتش » ثلاثة أيام حين ترك « سيمن » مهمة التلويح لقطار الساعة السادسة إلى زوجه ومضى إلى الغابة يقتطع بعض أخشاب الصفصاف — بعد أن خبر الخط بنفسه ليتأكد من سلامته

وكانت خيرة عيدان الصفصاف تنبت حول

مستنع فى جوف الغابة ... فقصد « سيمن » إلى ذلك المكان واحتطب منه كفايته ثم تأهب للرجوع

كانت الشمس قد تضيفت للغروب ، وكان يخيم على المكان سكون رهيب لا يسمع من خلاله غير زفزفة الريح ، وحفيف الغصون ، وخشخشة (١) الأوراق الجافة المنتثرة على أرض الغابة . . . وسار « سيمن » حتى قارب خط سكة الحديد فخيل إليه أنه يسمع طرقاً على معدن، فخب السير ليرى ما هذا. إن الخط فى هذه المنطقة لا يحتاج إلى إصلاح فما تعليل هذا الطرق ؟

وخرج من الغابة فرأى على « سدة القطار » رجلا قد جلس القرفصاء وكأنه مشغول بشىء بين يديه ، فدنا منه « سيمن » فى حذر ، وكان يظن أنه رجل جاء لسرقة بعض صوابير الخط ! ثم أنعم فيه النظر — وكان الشخص قد نهض — فرأى مُخيلاً أمرٌ من تحت الخط الحديدى لينحرف به عن اتجاهه . . لقد حاول « سيمن » أن يصرخ به ، ولكن كيف ؟ إنه . . « فاسيلى » فانقض عليه بسرعة عجيبة ، غير أن « فاسيلى » كان قد طفر إلى الجانب الثانى من السد ، حاملا إزميله معه

— فاسيلى ستيفانيش — أيها الأخ — أيها الصديق . عد إلى . هات أزميلك لنعيد الخط إلى ما كان . لن يعلم بهذا أحد ؛ عد . سارع وأنقذ « روحك » من اقتراف الاثم .

ولكن فاسيلى لم يعد بل أوغل فى الغابة هرباً !

وقف « سيمن » حيال الخط المفصومة عراه — تاركاً عيدانه تنتثر — ... إن القطار الآتى قطار ركاب لاشحن ! وليس فى استطاعته إيقافه إذ ليس لديه علم الخطر الأحمر ، وليس فى مقدوره أن يعيد الخط بيديه المجردتين إلى وضعه السابق . وإذاً فعليه أن يركض إلى مكان قريب . إلى داره ليحضر الأدوات . ومنك ياإلهى النجدة . .

وانطلق « سيمن » نحو داره بسرعة فائقة وابتعد عن الغابة . غير أنه ما يزال بينه وبين داره نحو مئتى ياردة !

إنها الساعة السادسة الآن ، وسيكون القطار هنا بعد دقيقتين . أيها الاله الكريم أنقذ الأرواح البريئة . لقد ارتسم أمام ناظرى « سيمن » المنظر بكامله ، فهذه القاطرة تتقدم عجلاتها الأمامية إلى مكان الخطر ثم تتبعها العجلات الأخرى ! يا للهول ! هنالك موضع الخطر ومن تحته انحدار خمس وعشرين قدماً — ارتفاع السد ! تلكم جموع الأطفال والنساء الحاشدة فى عربات الدرجة الثالثة وهم جميعاً ساهون لا يتوقعون حدوث الكارثة ولا يدرون عنها شيئاً كلا ... ليس فى الوقت سعة للركض إلى الدار ، فليعد أدراجه إذن ...

استدار « سيمن » راكضاً من حيث أتى وهو لا يدرى ما يفعل ، مضاعفاً سرعته فى الركض ، غير مهتد إلى حل ، جاهلا نهاية هذه المشكلة !

عاد إلى حيث كان أصاب الخط التخريب ، إن عصيه كانت مكومة هناك ، فوقف لحظة ، ثم أخذ إحداها ، وابتعد راكضاً — لقد وصل إلى أذنيه صفير القطار البعيد ، وها هى ذى القضبان بدأت تهتز وكانت قواه قد خارت ولم يعد باستطاعته أن يواصل الركض . إن بينه وبين مواطن الخطر الآن قرابة مائتى ياردة ، لقد خيل له أنه توصل إلى حل معقول

(١) صوت حركة القرطاس والثوب الجديد أو الدرع أو ما أشبه ذلك، وهي من الكلمات الدارجة التى تستعملها (العامة) فى العراق بهذا المعنى .

فرفع قبعته واستخرج منها منديلا قطنياً ثم سحب سكينه وحز ذراعه قائلا :

— بارکنی یا إلهی !

فتدفق الدم غزيراً قانياً حاراً ، فبلل منه منديله ثم نشره وعلقه على العصا الصغيرة ، ثم أمسك بعلمه الأحمر هذا ينتظر القطار ، ووقف هناك يلوح بعلمه . إنه ليتراءى له أن سائق القطار لم يره فهو يمضي مسرعاً حتى يقارب الموضع المشؤوم فيتردى

كان دمه ما يزال يتدفق بغزارة ، فألصق جرحه بجسده ضاغطاً عليه ليوقف تدفق الدم ، ولكن ذلك لم يفده . لقد كان جرحاً رغيباً [1] .. إنه ليشعر بالدوار يستولي عليه ، والذباب يتراقص أمام عينيه . ثم عم الظلام فهو لا يرى شيئاً ، ولكنه يسمع مثل دقات الجرس . إن شيئاً واحداً يشغله : خوف ترنحه قبل مرور القطار ، فلا يراه السائق أو يشعر به ! أدركني يا إلهي برحمتك ... وأظلمت عيناه ، وتبلد ذهنه ، فهو لا يعي شيئاً مما حوله ... ثم سقط العلم من يده ! غير أن علمه المدمى لم يسقط ... بل أخذته منه يد شخص ( ! ) لا يدري من هو ، وظلت تلوح به إلى موعد مرور القطار !

رأى هذا المشهد سائق القطار فأوقف قاطرته فنزل الركاب يستطلعون طلع الأمر ، متجمهرين ليروا ... ماذا ؟ رجل فاقد وعيه قد غطاه الدم ، وبقربه آخر ممسكا بعلم أحمر مدمى مربوط بعصا صغيرة ...

ونظر « فاسيلي » إلى ما حوله ، ثم لوى رأسه وهو يقول :

« اقبضوا علي ... فقد كنت سبب ما ترون ! »

« بغداد » فخري شهاب السعيدي

(١) الجرح الرغيب العميق

بيت الله الحرام مهدت السبيل إليه

﴿ شركة مصر للملاحة البحرية ﴾

ببواخرها الفاخرة و فنادقها الفخمة

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا

جميع الاستعلامات من شركة مصر الملاحة البحرية

رقم ١٥١ شارع عماد الدين — القاهرة

# جزاء الفضيلة

للكاتب التركي رشاد نوري

بقلم الأديب السيد بشير الشريفي

( بهو دار البلدية في مركز إحدى المتصرفيات وقد غص بالعلماء والشيوخ وكبار الموظفين وأعيان المدينة )

( يوالي المتصرف قرع الجرس وهو في كرسي الرياسة حتى إذا سكنت الضوضاء وأنصت الحاضرون أنشأ يقول : **افتتحت الجلسة يا سادة. إنكم تعرفون الغاية من هذا الاجتماع فلا أتعب حضراتكم بمقدمات لا لزوم لها بل أرى أن أدخل في الموضوع رأساً**

**لقد انتقل إلي رحمة الله منذ أربعة أشهر الحاج** ( بهاء الدين أفندي ) **المعروف** ( ببوزجي زاده ) **وكان من تجار مدينتنا الموثوق بهم ومن كرام أعيانها وهاذا هو يدل على مبلغ سخائه بتخصيصه خمسمائة ليرة من كامل ثروته البالغة أربعمائة ألف ليرة ، لتنفق في وجوه البر والاحسان وإني أقرأ عليكم الفقرة الخاصة بذلك من وصيته**

(المتصرف يخرج غلافاً من بين الأوراق المكدسة أمامه ويصلح نظارتيه ويقرأ )

**بعد أن تقسم ثروتي بين الورثة كما هو موضح في أعلاه يصرف المبلغ الباقي وقدره خمسمائة ليرة في الأعمال الخيرية على الوجه الآتي :**

**(١) تبتاع ستارة ثمينة بمبلغ خمس عشرة ليرة يجلل بها باب** ( مسجد جلبي ) **على أن يطرز اسمي في منتصفها بخيوط صفراء**

(*) نقل لنا معانيها من التركية الأستاذ عمر فائق مدير المدرسة الثانوية في أربد فوضعتها في هذه الصيغة العربية

**(٢) تبتاع سبعة أباريق من النحاس الأصفر ينقش عليها اسمي وتوضع في سقاية** ( حسن الصغير )

**المتصرف — حيث أن هذا القسم من الوصية طويل ولا علاقة له بموضوعنا الذي اجتمعنا من أجله فانكم توافقون على أن نصرف النظر عنه وننتقل إلى الفقرة الخاصة بنا**

( المتصرف يقرأ ) :

**يرينا الاختبار أن رجال النزاهة والاستقامة يقل عددهم يوماً بعد يوم ، وهذا مما يؤسف له حقاً فلعلاج هذه الظاهرة الخطرة على قدر المستطاع ، ولتشجيع أهل العفة وحث الناس على الاقتداء بهم فاني أوصي أن يعطي مبلغ المئتي ليرة الباقي من الخمسمائة ليرة إلى أعف شخص في مدينتنا على أن يشهد الجميع بعفته واستقامته وأن تقرر ذلك هيئة مؤلفة من وجوه المدينة وأعيانها ، وعلى من سينال الجائزة أن يتعهد مع القسم بإيفاء الشروط الآتية :**

**أولاً : أن يرشد الناس إلى الخير في كل فرصة ومناسبة ويعلمهم أن النزاهة والاستقامة تكسب صاحبها الفوز والنجاح في الدارين ويضرب المثل على ذلك بهذه الجائزة**

**ثانياً — أن يتلو سورة ( يس ) الشريفة في كل مساء خميس**

**ثالثاً : أن يقرأ** ( المولد الشريف ) **في السنة مرتين**

**رابعاً : أن يزور قبري مرة في الأسبوع ...**

( يلقي المتصرف الأوراق من يده ) — **لا أرى من**

حاجة لمتابعة هذه الشروط التى تبلغ واحداً وسبعين شرطا لأن وظيفتنا الأصلية هى انتخاب من يتفق الجميع على أنه أنزه وأعف شخص فى البلد . ولتسهيل مهمة هيئتكم المحترمة قد نظمت بالاشتراك مع سعادة الباشا رئيس البلدية وحضرة الأفندى رئيس المحكمة قائمة بأسماء المرشحين ؛ ولكن مما يؤسف له حقا أن قائمتنا هذه ليست غنية بالأسماء فنحن بعد أن أجرينا تحقيقا دقيقا مع هيئة الشيوخ لم نجد سوى خمسة أشخاص قد توفرت فيهم الشروط اللازمة، ولكى نبرئ ذمتنا أمام الله فقدعلقنا أسماء هؤلاء الأشخاص على أبواب المتصرفية والبلدية والمحكمة ورجونا الشعب أن يوافينا بكل ما يعرفه عنهم

أصوات — ( موافق ! نعم مافعلتم )

الرئيس — إن أول المرشحين هو السيد ( حافظ رائف ) أحد كتاب البلدية ، والسيد حافظ رائف يعرفه الجميع ويحبه الجميع ، إن هذا الشخص الذى أمضى ثلاثين عاما فى دائرة البلدية لم يعرف عنه أنه أساء إلى أحد فى يوم من الأيام

أصوات — نعم هذا صحيح

الرئيس — ولكنى أستدرك فأعرض على حضراتكم بأن حافظ أفندى قد جاء قبل ساعة إلى مقام العاجز وحدثنى حديثا غريبا جدا. قال لى: أنا فقير الحال وكثير العيال وإن مثل هذا المبلغ على فرض أني ظفرت به سيكون له أعظم شأن فى حياتى ولكنى على الرغم من ذلك أشعر بخوف غريب لا أعرف له سببا ... أرجو إعفائى من هذه الجائزة

رئيس المحكمة — ليس من محل لمثل هذا التوهم وعلينا أن نقوم بواجبنا نحو هذا الرجل المستقيم

طبيب البلدية — (وهو فى الخمسين من عمره، بدين، أشيب الشارب ، أحمر الوجه )

حضرة الرئيس ، أرجو أن يسمح لى بالكلام . إني مقتنع أنا العاجز بأن هذا الرجل قد شعر بالخطر شعوراً حقيقياً فأرى أن ينظر إلى طلبه بعين الاعتبار فيصرف النظر عن هذه الجائزة التى أراها منافية للأخلاق

أصوات عديدة — ( الله الله . أسكتوه إنه يهذى )

الطبيب — ياحضرة الرئيس أرجو أن يحفظ حقى فى الكلام ... أيها السادة لا فائدة من الضوضاء ... سأتكلم حتى النهاية ... إننا جميعنا نعرف من هو ( بوزجى زاده ) فلا حاجة بنا إلى خداع أنفسنا ليغفر الله له سيئاته

المدرس زاهد افف — ( بصوت أجش )

اذكروا موتاكم بالخير

الطبيب — لقد قلنا ياسيدى . غفر الله سيئاته نعم إن ( بوزجى زاده ) هذا قد أراد حتى بعد وفاته أن يزعج مواطنيه ويسيء إلى الناس ... لاتصيحوا أيها السادة ... سأتم كلامى ولو انفلق الحجر ... أراكم لم تدركوا ما تنطوى عليه كلمة ( شهادة الجميع ) من النوايا المبيتة . إنها تجعل هذا الشخص المسكين هدفا لانتقاد الألوف من أهل هذه البلدة وكل واحد منهم عالم مستقل . إن السماح لآلاف العيون أن تخترق (حريم) عائلة مستورة لهو من أفظع الجرائم . أيها السادة إذا كنتم تحترمون العفة والفضيلة حقيقة فدعوا الرجل فى عزلته يعيش كزهرة متواضعة من أزهار الجبال . إنكم تعرضون هذا الشخص الذى ستجعلونه نموذجا للعفة والاستقامة للغرق فى طوفان

من الحسد والغرض . ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟ إنى أخشى أن تجعل الأغراض والمنافع من قطرات الندى على وجه هذا التمثال الذى انعكس عليه الضوء لطخات إجرام ، لذلك أرى أن تلغى هذه الجائزة

المدرس زاهد افف — لولا أن المجال ضيق لأثبت لك بالدليل القاطع أن دفاعك كله مغالطة وسفسطة .

الرئيس — لنستمر فى البحث ؟ لقد صنف الكاتب ما ورد من رسائل ، فاذا سمحتم قرأ عليكم خلاصتها .

الكاتب — الرسالة الأولى وردت من جار لحافظ افندى يشهد له فيها أنه رجل طيب ولكنه يذكر أن مشاجرة وقعت فى الحى الذى يقطنه رائف افف وأنه لما دعى للشهادة رفض أن يدلى بأقواله مدعياً أنه لم يشاهد شيئاً فى حين أن أشخاصاً يشهدون أنه كان حاضراً .

المدرس — إن هذا لعمر الحق ذنب عظيم . لقد كنا نعتقد فى رائف افف التقوى والصلاح فاذا به يكتم الشهادة أحياناً فأرجو أن تسجلوا عليه ذلك .

الكاتب — الرسالة الثانية وردت من جار آخر يقول فيها إن حافظ رائف افف كتب فى العام الماضى عريضة لامرأة فقيرة مهاجرة ذكر فيها أن المرأة عليلة مريضة .

الطبيب — ما هو ذنب حافظ رائف؟ لقد قالت له المرأة إنها مريضة فكتب أنها مريضة .

المدرس — لا تقل ذلك يا حضرة الطبيب، إن وسيط الخداع خداع . أرجو تدوين ذلك .

الكاتب — التحرير الثالث ورد من مختار الحى السابق يذكر فيه أنه منذ سنتين كانت تسكن امرأة فى الحى الذى يقيم فيه رائف افندى وأنه ثبت بالتواتر أن هذه المرأة قبلت فى منزلها رجلا غريباً عنها فوضع أهل الحى عريضة طلبوا فيها طردها من حيهم وأبى رائف أن يوقع تلك العريضة .

أصوات عديدة — لم نكن نتوقع هذا النكر من حافظ رائف .

الطبيب — وأى منكر فى هذا ؟ لقد أحسن صنعاً ؟ ليس من شأنه أن يوقع مثل هذه العرائض .

المدرس — بل ليس أفظع من ذلك ؟ إن من يحمى الفجور هو فى الواقع مروج للفحشاء وإنكم لتعرفون ماذا يسمى من يسهل الاتصال غير المشروع .

الطبيب — وعليه قيدوا ذلك على التمس

المدرس — كلا . . . سوف لا نلقب حافظ رائف بهذا اللقب البشع حرمة لما له من حسنات بل أرى أن يكتفى بالقول إنه سهل من بعض الوجوه إجراء فعل شنيع .

أصوات — موافق . موافق .

الكاتب — الكتاب الرابع ورد من أحد المستأجرين يتهم فيه رائف أفندى أنه كان يكذب فى بيان بدل إيجار العقارات ليستفيد أصحابها فيدفعون ضريبة مخفضة .

الطبيب — أيها السادة أرجوكم . . . كلنا يعلم مقدار ما كان يدفعه المرحوم « بوظجى زاده » عن أملاكه ...

المدرس — ( الباطل لا يقاس عليه) يا حضرة الطبيب ؟ ليدون ذلك .

المحاسب — أرجو أن تسمحوا لى بهذا الكتاب ياحضرة الرئيس لأجرى التحقيقات الأصولية حتى إذا ثبت ما جاء فيه ضمناه الخسارة من أصل الجائزة .

الكاتب — صاحب هذا الكتاب استعاض عن التوقيع بهذا الشطر ( العدل يستغنى عن التوقيع ) التوقيع » وهو يفشي فى كتابه بعض أسرار تتعلق بحياة رائف الخاصة .

الطبيب — لوجه الله أرى أن يطوي هذا الكتاب على الأقل، أنا لا أرى من حقنا أن نبحث فى حياته الخاصة .

المدرس — الله ! الله ! إذا نحن لم نسبر غور حياته الخاصة فكيف تثبت عندنا درجة عفته وفضيلته . استمر يا حضرة الكاتب .

الكاتب — إنى أقرأ بعض فقرات وردت فى الكتاب « تزوج رائف افندى من امرأته الأولى بعد غرام دام ستة أشهر ؟ أما أمرأته الثانية التى تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى فقد كانت زوجة رجل عجوز يشغل منصب رئيس محكمة الجنايات عرفها أثناء ترددها على دار البلدية لقضاء مصالح لها ومن ذلك الحين تمكن الحب بينهما فما أن توفى زوجها حتى عقد عليها !

المدرس — يالله ! يا للعجب للعجاب ، إن فى حياة هذا الرجل الذى كنا نظنه المثل الأعلى للفضيلة صفحات مات فيها الوجدان ، خداع امرأة ذات زوج ، وأين يقع ذلك ؟ على رأس العمل أثناء القيام بالوظيفة . حسن استمر أيها الكاتب .

الكاتب — منذ سبع سنين فوجئت ابنة خالة حافظ رائف افندى مختلية بضابط فى منزلها وأحبت ابنته الكبرى جابيا وفرت معه ، وحبس ابنه الصغير شهراً ونصف شهر لضربه ابن جاره و كسره سنين من أسنانه .

الطبيب — حسن ، أمسؤول هذا المسكين عن كل ذلك ؟

ابنته فرت، ابنه سجن، ابنة خالته فوجئت مع ضابط ، أما هو فما ذنبه ؟

المدرس — أرجوك ياحضرة الطبيب.. لو كان رائف أفندى رجلا فاضلا حقيقة وربى أولاده تربية دينية صالحة هل تظن أنه كان يحدث ما حدث ؟

الكاتب — صاحب الرسالة السادسة يذكر أن رائف أفندى شوهد منذ ثماني أو عشر سنوات يشرب الخمر فى أحد الأعراس .

أحد الحاضرين — يالها من فضيلة ...

الرئيس — أرجو ألا أكون متطفلا ، إذاً فالرجل يشرب الخمر أحياناً .

الكاتب — الرسالة السابعة من إمام الحى يذكر فيها أن حافظ أفطر أسبوعا فى رمضان محتجا بالمرض .

المدرس — سجلوا عليه تقصيره فى واجباته الدينية .

الكاتب — الرسالة الثانية وردت من رجل يدعى رشدى أفندى كان أمينا على صندوق الانتخابات الأخيرة يذكر فيها أن حافظ رائف امتنع عن إعطاء صوته بدعوى أنهم لم يتركوا له حرية الانتخاب ...

الرئيس — سجلوا عليه أنه استنكف عن القيام بواجباته المدنية والسياسية .

رئيس النادى — تفضلوا وأضيفوا أنه غير مطيع للحكومة المقدسة .

مدير المدرسة — لو أضيف أيضا ( أنه يحمل

أفكارا رجعية ) لكان ذلك صوابا .

الكاتب — الرسالة التاسعة من مفوض الشرطة يذكر فيها أنه من ستة أشهر بينما كان أحد رجال الشرطة يسوق مومسا سكرى إلى المخفر اضطر إلى استعمال بعض الشدة معها فاعترضه رائف افف وقال له من العيب أن تسيئوا معاملة المرأة .

الرئيس — حال دون قيام الشرطي بواجبه .

الكاتب — الرسالة العاشرة وردت من أحد المراجعين وهو يذكر فيها أن رائف أفف قال له بعد أن ماطله أسبوعا : ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟ إن الرئيس لم يحضر إلى البلدية حتى يوقع على الأوراق

رئيس البلدية — ياله من مفتر ... ومن أين له الحق في انتقاد رئيسه ؟ سجلوا ذلك

الكاتب — الرسالة الحادية عشرة تبحث في إهمال صدر عن رائف افف وذلك أن مناقصة جرت بالأمس لابتياع كمية من الكلس فتأخر رائف عن تسليم مغلف أحد المناقصين إلى اللجنة في الوقت المعين فسبب ذلك أن خسرت البلدية مائة ليرة

رئيس البلدية — كثيراً ما أغضيت عن ذنوب كثيرة كان يرتكبها رائف أفندي، أما الآن فقد طفح الكيل وسأعزله وبامكانه أن يستعين بالجائزة التي سينالها على معاشه فيفتح حانوتاً أو يفعل ما يشاء ذلك ما لا شأن لنا به

رئيس النادي — وعلى كل حال سيكون في بلد آخر إذ ليس من الصواب أن يبقى هذا الرجل في هذا البلد وهو مشكوك في لونه السياسي

الطبيب — يصيح بأعلى صوته :

أيها السادة قليل من الشرف والايمان والوجدان يوجب الكف عن تلاوة هذه الرسائل . إن هذا الرجل فقد الثقة التي تدفع الناس إلى لقاء الناس

الرئيس — وأي محذور ترى في استمرارنا على قراءة هذه الرسائل

الطبيب — وأي محذور أرى ؟ إنكم إذا تابعتم قراءتها ستجدون ما يوجب سوق هذا الرجل الذي اتخذتموه مثالاً للفضيلة إلى المشنقة غداً صباحاً

المدرس — إنك لعلى باطل بيد أني أرى أن نكتفي بما سلف ، لم تكن غايتنا محاكمة هذا الرجل بل التثبت من عفته ونزاهته ( ياما في الزوايا خبايا ) وأخيراً نشرت صحيفة رائف افف على الجميع فانكشفت فضائله .. أرجو أن يأمر حضرة الرئيس بحذف اسمه من جدول المرشحين . . . وفي الجلسة الآتية نحقق عن فضائل الباقين ...

الطبيب صائحاً — يا حضرة الأستاذ يظهر أن فضيلتكم .. قد اعتزمتم سوق أرباب العفة والنزاهة واحداً واحداً إلى المشنقة حتى لا يبقى في المدينة غيركم

« شرق الأردن » بشير الشريفي


# التصوف الاسلامي
## في الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكي مبارك

يقع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين وثمنهما معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة في البلاد العربية ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة

من قاصيص اليابان

# وفاء رافصة

للكاتب لافكاديو هيرن

بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد

حدث من كان فى الأيام الخوالى . . أن فتاناً بارعاً أراد ، وهو فى صدر شبابه ورونق يفاعته ، الطواف فى بلاده ، ليوقد حسه فتضطرم عاطفته ويفيض شعوره وتخط ريشته ما يبهر العين ويسكر النفس ويحيي الشعور . وكانت البلاد آنئذ مليئة بغابات الصنوبر ومزارع الأرز ، والحقول مغمورة بأفواف الورد والزهر ، والقرى مكتظة بالأكواخ والجواسق . وحفاف الطرقات تحمل تماثيل « الجيزو » الضاحكة لحجاج الهياكل وقصاد المعابد . . والأنهار تبسم للنواعم من الفتيات اللاتى كن يأتين ليرتمن فوق الحشيش الأخضر ويجممن من ضفافها أعواد الزنبق ، وأنواع الزهور ... وكل ما هنالك مغمور بالجمال والسحر ، ومفعم بالفتنة والبشر ، ومملوء بكل ما يحب ويشتهى .

وانطلق الفتان يمتع العين بالنظر ، والنفس بالتأمل ، والقلب بالنور . ويحلق فى عالم علوى يموج بالشعر والفتون . فأدركه المساء ، ذات يوم ، وهو فى واد منعزل يضل فيه السائر ويتيه العابر . فانقبض صدره واضطرب باله . وحار ، فما يدرى إلى أين يأوى وفى أى مكان يبيت . وكان ظلام السماء وأنين الصنوبر ، وسجو الليل ، كان كل ذلك يملأ جنبات الوادى رهبة وحزناً ؛ فوقف المصور يفكر ، وقد بعث هذا المنظر فى نفسه لذة وانقباضاً ولكنه انقباض وديع يرف فيما حوله ، ويدفعه لأن يقلب بصره مرة ومرة فى هذا المكان الذى لا تسمع فيه سوى زفيف الريح تبث حزنها لأفنان الصنوبر ... وإلا زفرات الصراصير الحادة تتصعد على وتيرة واحدة . فمشى على غير هدى تائهاً بين الأشجار والأزهار ، وتنقل فى ضلال بين الحقول والبساتين ، والظلام دامس والحلك شديد . ثم هبط إلى السهل ، ومشى فى الوادي ، وصعد فى الجبل ، يفتش عن مأوى ، فما وجد المأوى ولا هدى السبيل ...

ويئست نفسه وضاقت بالكون .. فعزم على المبيت تحت النجوم بين الأخاديد ... ولكنه أبصر فجاءة فى متبسط السفح وراء المنحدر الذى صعد فيه ، شعاعاً خفيفاً يخفق ويضطرب ، فقام يعدو .. نحوه ، فاذا هو أمام كوخ كبير .

**تعريف**

« لافكاديو هيرن كاتب كبير ، ولد من أم يونانية وأب إيرلندى . طوف فى البلاد وهو فى ريعان صباه ثم قصد إلى أمريكا وعرج على اليابان حيث أصبح مواطنا تحت اسم « كويزومى ياكومو » . ألف كثيراً من الكتب التى يظهر فيها التحليل العميق والشعر السامي والفلسفة النافذة . درس الحياة الاجتماعية فى اليابان دراسة دقيقة ، بعد أن أصبح أستاذاً للأدب الانكليزى فى جامعة طوكيو . له من المؤلفات : كتاب « اليابان المجهولة » و « فى صميم الحياة اليابانية » وغيرها . وهذه قصة ذكرها عند بحثه عن نفسية اليابانيين ، أخذناها عن كتابه « اليابان المجهولة » وهى ليست بحاجة إلى تقديم ، إذ تقدم نفسها بنفسها لما فيها من الدقة فى الوصف والجمال فى المعنى والرشاقة فى الأسلوب . »

وطرق الباب بقلب خافق ونفس قلقة . فسمع من داخل الدار صوتاً عذباً يسأل عن الطارق . فطفق الفنان يحدثه عن نفسه وكيف ضل فى الوادى وقد أقبل الليل وخيم الظلام . وطلب المبيت فى الكوخ حتى يتنفس الصبح ويظهر له الطريق . وفتح الباب . . فاذا فتاة تحمل بيدها مصباحا أضاء الكوخ . فقادته إلى غرفة نظمت تنظيما يدل على ذوق تام وفن بارع . فجلس ينظر إلى الفتاة ... فبهت فجأة ... ياللحسن الساحر والسنا الفياض ! لقد كانت رفافة الاهاب ، غضة الشباب ، وكانت تميس تيهاً ودلالاً ، ويفيض جسمها إغراء وفتوناً . . آه ! إنها من بنات المدن وليست من القرويات ...

وأخذ الفنان يستمع إلى صوتها العذب المشتهى وفى عينيه وميض صبوة محرقة وظمأ قتال . قالت له بنبرة حلوة مسكرة :

— « أنا وحيدة فى هـذا الوادى ... عزفت عن الناس وعزف الناس عنى . والطريق فى شعاف الجبل صعبة ملتوية ، فابق هنا ، فان ما أقدمه لك ليس بالكثير .. وما عندى شىء . ولكن سأعطيك سريرى ، وسأقدم لك قليلا من الحلوى .. »

وقبل الفنان أن يبيت وقد هفا قلبه إلى الحسناء ورقص من أجلها طرباً . وقامت الفتاة فأشعلت النار .. ثم قدمت للضيف ما يأكل منه

على أن نظام الدار ، ونظافة الأثاث ، ونسق الترتيب وأناقة الطراز ، بهر نفسه وأعجبها . وخصوصاً هذه الزينة التى تجمل المكان ، والتى صنعت من الورق الأبيض الذى صور عليه أزاهير الربيع ، وأمطار الصيف ، ونجوم الخريف ، وظهر فيه سيف البحار ومياه الغدران وعواصف الشتاء مما يطرب الشاعر ويهز الفنان . وكان فى زاوية الغرفة مذبح صغير يتصاعد منه رائحة البخور المسك وفى داخله منضدة فرشت بالورود الوحشية . تحترق أمامها شموع كثيرة ببطء ، فتضيء صورة « كانون » إلهة الرحمة والغفران .

وأكل الفنان مما قدم له مضطرباً حائراً لكثرة ما علق بصره فى الفتاة ، فلما فرغ من الأكل قالت له :

— هذا هو سريرى ياسيدى أقدمه لك .. مع كلة من الورق الأبيض . وسأمضى إلى أعمالى فى الدار فنم ياسيدى بأمان .

وممانع الضيف . . . ولكنها طلبت منه بلهجة الأخت ، وبدلال الغوانى أن يستريح من غبار السفر ، ثم تراجعت ، ووضعت أمام سريره حاجزاً من الورق ، قسم الغرفة إلى قسمين ، وتمنت له نوماً هادئاً ومساء حلواً وتركته وعلى ثغرها ابتسامة كلها فتون وإغراء .

* * *

وما كاد الفنان يغمض أجفانه ، حتى غاب فى نوم عميق ... ولكنه مضطرب متقطع . وفجأة سمع صوتاً غريباً أيقظه . . ثم وقع أقدام . . لكن ما هذه الأقدام .. إنه مشى لا خفة فيه ولا هدوء .. إنه وقع قوى . . فيه حركة وفيه حياة . . قال فى نفسه : ترى أقدام من هذه ؟ ... ليت شعرى ألصوص يطوفون حول البيت ويرتعون فى جنباته ، أم قطاع طريق .. ؟ ماذا ؟ أيريدون المتاع أم اختطاف الفتاة . . ! ؟ ترى أتستسلم لهم . . ؟ أتذهب معهم . . ؟ أواه ! يا لجمالها الباهر . . ! ومالى

لا أقوم . . إن الحركة لتزداد . ومد الفنان رأسه من الكلة ولكنه لم يستطع رؤية شيء ، فالحاجز الذي وضعته الفتاة يحول دونه ودون أولئك ! رباه ! ماذا أفعل ؟ أأصرخ ؟ ولكن ماذا يفيد الصراخ . . ؟ ومن يجيبه ؟ الهواء النائم ، أم الليل الوسنان ؟ . . إذن لأقدم ، فلا بد مما ليس منه بد . . وارتدى ثوبه وتقدم . . تقدم . . وأخذ ينظر إلي ما يجرى وراء الحاجز . فوقف مبهوتاً لا يتكلم ولا يتحرك . . .

لقد رأي الصبية الحسناء . . عارية الساقين . . ممتلئة الفخذين . . بارزة الثديين . . قد زينت نحرها باللؤلؤ ، وصدرها بالدر ، وبعثرت الحلى هنا وهناك . لقد رآها ترقص أمام المذبح بثوب قصير فاتن . . لا تجده عند الراقصات المحترفات . وقد زين بالحلى وضمخ بالعطر . . وهى تبكى . وكان جمالها سحريا كأنما مسحت عليه يد الملائكة وأفاضت عليه فتنة من فنها وجمالا من جمالها . . يا للحسن الباهر ! والأنوثة الرقيقة ! والرقص العبقرى . . . ! لقد وقف دهشا . وخيل إليه أنها إحدي الحور العين . وغاب عن نفسه . . وحلق فى عالم بعيد . . بعيد جداً . فنبهه شذى البخور المحترق ، وهذا الاله الذى يطل من فوق المذبح وينظر بعينين عميقتين . فأراد أن يعود إلى سريره . . لأن ما يفعله منقصة وعيب . . ولكن روعة المشهد ، وفتنة المرأة ، وسحر المرى . . كل ذلك سيطر عليه فأوقفه . . ودفعه إلى أن يتأمل . . ويتأمل .

يا للساقين ! ليت شعرى أأعمدة من مرمر أم قطع من رخام . .

وهذان الثديان ! لم يرقصان . . ؟ يا رحمتا لهما . . أيبكيان بعد الحبيب !

وهذا الصدر ! أواه . . . هنا يلتمس السحر ويطلب النعيم . . .

والفم الرقيق . . . والعيون . . . والخدود . . . هنا تتيه الشفاه الظامئى تلتمس القبلات . .

تباركت يا إلهى ! تباركت يا بوذا ! وقفزت الصبية قفزة إلى الأعلى . . . ثم هبطت ، ووقفت أمام المذبح تبكى . . ثم قامت تنزع ثوبها . . ولكنها . . تراجعت . . تراجعت إلى الوراء . . عندما رأت عيناً تحدق فيها .

واضطرب الفنان وتلعثم فايدرى ماذا يقول . . وبأى شيء يعتذر فاقتربت منه حتى تبينته . . ووقفا وقد علق بصر كل منهما بالثانى وتشجع . . وقال :

— من أنت إذن يا فتاة ! عفواً . . . عفواً . . . إغفرى لى زلتى . . أأنت طيف من أطياف الجنان ؟ أم ربة من الربات الحسان . . ؟ ومن أين تعلمت هذا الرقص . ؟ أإنسية أنت أم من الجان . ؟ أنا لم أر بين راقصاتنا من يرقص مثلك يا فتاة ! لا تغضبى . . . عفواً . . عفواً . . لقد أخطأت . .

قالت له بصوت ناعم ولهجة حزينة . .

— كلا . . لم أغضب يا سيدى ، ولكنى أخاف أن تحسبنى من بنات الهوى أو أن بى مساً من الشيطان . . إصغ إلىّ يا سيدى ، فها هى ذى قصتى سأنفضها بين يديك . .

وأخذت الفتاة تقول إنها إحدى بنات الأشراف ممن باركهن الاله وقربهن الميكادو . .

ولكنها كانت فقيرة بائسة .. فأحبها شاب لا يقل عنها فى الشرف والجمال ، وإن زاد عنها فى الغناء والثروة . وفرّا ذات ليلة من أهليهما .. ليعيشا معاً ، وكان معهما من المال مايكفيهما . فذهب بها إلى واد منعزل ، بجانب إحدى الغابات المذارى ، فبنى هذه الدار وعاش يعبدها فيها ... ويرى أنها ملك أرسله الاله إليه ... لقد عاشا سنوات وسنوات ، ملكا فيها الحب والسعادة والآمال .. وكان يحب أن يراها ترقص عارية كل ليلة على أنغام الناى الحزينة .. فكانت ترقص وتبدع .. فيمضى إلى أقدامها الصغيرة يقبلها .. ويسكب دموعه فوقها . ولكنه مرض .. مرض ذات مرة فى الشتاء ... فعنيت به ، ولكن واأسفاه ، أخذه الموت .. ومضى

لشد ما أحبته ! لقد وهبت له قلبها ومالها وجسدها ...

كم مرة ... كانت تنحنى على أذنيه تسكب فيهما أناشيد الخلود !

كم مرة ... كانت تحدثه عن أقاصيص الحب وأحلام الهوى !

كم مرة ... كانت تتعرى فى الليل ... ثم ترقص رقصات فاتنات ... والبرد يلذع جسمها العارى وأقدامها الصغيرة

لقد توسلت كثيراً إلى بوذا ... وبكت كثيراً أمامه ... ولكنه ... وا آسفاه ... لم يسمع لها ... أبدا

منذ ذلك الحين ... عاشت وحيدة فى هذه الدار تحفظ الذكرى التى كانت تملأ قلبها ونفسها . فكانت تصلى لروحه كل يوم أمام المذبح ... وتبكى ... فاذا ما سجا الليل ... ونامت العيون ... وسكنت النفوس ، قامت فتعرت ، ولبست ملابس الرقص القديمة ... ورقصت كثيراً وهى تسكب الدمع . حتى ينهكها الرقص وتمل البكاء ...

وأطرقت قليلاً تجفف عبراتها المنسكبة ثم قالت

— حسبت أنك نائم ، فقمت لأرضى روح زوجى ... ولكنك ... رأيتنى ... نعم

أنا أرقص كل ليلة ... وهو ينظر إلىّ ... هذا دأبى حتى أموت . قم ونم أيها الزائر . هذه قصتى نفضتها بين يديك ...

وبكى الزائر رحمة لها .. ثم قام إلى سريره يفكر ويسمع ...

ونام نوماً هادئاً .. لم يستيقظ منه إلا وقد متع النهار . وقام يريد الذهاب ، فقدم لها قليلا من الدراهم فضحكت ... وقالت له :

— لا أستحق ذلك يا سيدى ... لقد قمت بواجبى .. !

ومضى الفنان ، يفكر فيما رأى وسمع ... لقد أسف على شئ واحد ... إنها تجهل اسمه ، ولكنه قال لنفسه : ما أنا إلا فنان حقير ...

* * *

وتقلبت الأيام ، وتغير كل شئ فى هذا الكون ... وشاخ الفنان ، ولكنه كسب شهرة ما كسبها أحد قبله ، وسار ذكره فى البلاد ، وجاءت إليه الثروة تجر أذيالها وقربه الملوك والأمراء ... وعظمته الخاصة والعامة ، وعاش تحفه السعادة ، ويرفرف فوقه الهناء ... !

وكان له قصر يقطنه مع تلاميذه ممن أتوا من أقصى بلاده وأدناها ليتلقوا الفن عنه . وكان كل شىء هادئاً طبيعياً فى هذا القصر . إلا تلك العجوز الشمطاء التى كانت تأتى كل يوم ، فتسأل عن الفنان

وتلح فى السؤال . ثم تطلب مقابلته وتلحف فى الطلب فاذا سؤلت عن طلبها قالت : لى معه شأن .. فكانوا يردونها ظانين أنها فقيرة متسولة . فتعود فى اليوم الثانى تسأل عنه وتطلب رؤيته ! فاذا ما ردت عادت فى اليوم الثالث ، تحمل كعادتها صرة صغيرة تحت إبطها .

وضجر التلاميذ من المجوز وضاقوا بها ذرعاً فأخبروا شيخهم بخبرها . فغضب وذكر أيام بؤسه ومحنته وقال لهم : إذا أتت فى الغد فأدخلوها .

وجاءت المجوز فى اليوم الثانى تدب دبيباً فأدخلت إلى قاعة واسعة . وهناك جلست تنشر أثواباً غريبة نادرة من الحرير ، عليها وشى من الذهب . قد زينت بأنواع الحلى والياقيت . فأخذ الفنان يحدق .. ثم أغرق فى ذهول عميق . ذكرى قديمة . قديمة جداً .. تأنيه ، إنها مضطربة حائرة . غامضة . . ها هى ذى تظهر شيئاً فشيئاً .. إنه يرى الجبل والوادى والكوخ المنفرد ، والراقصة فى جوف الليل ، أمام الشموع المحترقة ، بين الورود والأزاهير ..

ونظر إليها وقال :

— عفواً ياسيدتى .. سأكلمك . . ولكنك هل تذكرين أيامك الخوالى قبل أربعين عاماً . . . خمسين عاماً . . . هل تذكرين المأوى الذى آويتنى فيه وقصة حياتك تحدثينى عنها بين الدموع . آه . أنا لم أنس شيئاً !

وأغرق الفنان فى صمت عميق . أما المجوز فبهتت ولم تدر ما يقول . وأخذت تفكر وترجع إلى الوراء . إلى الماضى البعيد . . . إنها تراه . . . يطرق الباب ، ثم يدخل ... ثم ينام ... وتنتفض فجأة : عين تحدق بها وترى جسمها العارى ، فى هدأة الليل . !

يا إلهى ! شكراً لك .. لقد تدت خطواتى إلى هذا السيد الرحيم ..

وطفقت المجوز تحدث الفنان عما أصابها قالت له :

— « وقست علىّ الأيام ، وأصبحت ما أطيق العيش هناك ... فتركت تلك الدار ورجعت عجوزاً فقيرة إلى المدينة التى تركتها وأنا فتاة حلوة الشباب غضة الصبا . شد ما تتغير الأشياء ! إنه ليصعب على المرء أن يترك المكان الذى ذاق فيه حلاوة العيش ولذة الحب .. بين ألافه وأحبابه ! ولكن كل شىء هيّن ياسيدى أمام هذه الشيخوخة القاهرة .. لقد منعتنى عن الرقص إذا ما جاء الليل أمام المذبح على نور الشموع وفاء لزوجى . أواه ! .. يا للهفة المحرقة والألم الممض ! وأصبحت لا أستطيع الحركة أو القيام . إن روح زوجى ترفرف كل ليلة تريد رؤيتى راقصة ! ولكن ... واأسفاه ! لقد جئت إليك لتخط ريشتك صورتى . . صورتى إذ كنت فتاة ، أرقص فى جوف الليل أمام المذبح ، وأنا عارية الجسم ، لأضعها أمام عينى الاله ، فاذا ما جاءت روح رفيقى ترفرف رأت الصورة فرضيت عنى !

وبكت المجوز ... واغرورقت عينا الفنان . وقال لها :

— لك ما تشائين !

قالت له :

— ولكن شيئاً واحداً يحزنني ياسيدى ، فأنا فقيرة ما عندى ما تريده منى . . . سوى هذه

الأثواب . . فتقبلها مني . . واحفظها إن شئت للذكرى !

— كلا . . كلا . . ما أريد شيئاً . . قرى عيناً . . واطمئني .

وتهلل وجه المجوز بالبشر وقالت :

— لك الحمد يا إلهي . . لقد تحققت منيتي . لتكن صورتي ياسيدي جميلة . . فاتنة . . علها ترضي المفقود . . !

وأخذ الفنان يخط بريشته صورة رائعة فاتنة ، بهت منها التلاميذ . لقد حدقوا طويلاً بهذه الفتاة الناعمة ، ذات النظرة الساحرة ، والقد الأهيف ؛ وهذا السحر الذي يفيض من هنا ، ويظهر من هناك ، وينظرون إلى هذه الأثواب الموشاة بالذهب المزينة بالحلي ، المفعمة بالألوان . . يالله ؟ شد ما تشبه بنات السماء (١)

فلما فرغ من صورته . . قدمها للمجوز

— أتريدين شيئاً من الدراهم ياسيدتي . . ؟

— كلا ياسيدي . . شكراً لك . . لن أتمنى بعد اليوم شيئاً ؛ ولئن مت فان بوذا سيفتح لي طريق جنانه . . وسأدعو لك . . كل مساء أمام المذبح ، شكراً لك ياسيدي . . شكراً !

— أين مأواك ياسيدتي ؟

— إنه حقير . . لا يستحق زيارتك !

ومضت المجوز تمشي مشياً وئيداً يتبعها تلميذ أرسله الفنان يرى مأواها

— إنه مأوى حقير ياسيدي . . بجانب النهر . . وراء المستنقع . . !

— سنراه غداً . وسنتعهده بعنايتنا

* * *

وفي اليوم الثاني جاء الفنان يدق الباب ، فلم يجبه أحد ؛ فنادى المجوز . ثم ضاق ذرعاً ودفع الباب . . فانفتح . يارحمتا لها ! لقد كانت ممددة على الأرض ملتفة بثوب ممزق أمام المذبح . وكانت الشموع آنئذ ، كما كانت قبل خمسين عاماً ، تحترق ببطء ، والبخور يتصاعد فيملأ الكوخ بشذاه المسكر . . . وكان فوق المذبح صورتها إذ كانت فتاة ، تقابلها صورة ثانية لأمة الرحمة . . وهنا خرق ممزقة . . وهناك عصاً طويلة . . !

لقد تقدم الفنان ليوقظها . . فناداها . . وكلمها . . وحدثها . . ولكنها ما كانت لتسمع أو تجيب . . فسقطت من عينيه دمعة . . . وعلم أنها لن تستيقظ أبداً !

يالله ! لقد امحت آثار الألم . . وعاد إلى وجهها جماله ، وظهر عليه الوقار والجلال ، ورفرفت فوقها بنات السماء يستغفرن لها ويأخذن روحها إلى السموات العلى !

يا للوفاء ! . . . يا للوفاء ! . . .

« دمشق » صبوح السيد المحمد

(١) أي الملائكة


إدارة الرسالة والرواية

انتقلت إدارة الرسالة والرواية إلى دارها الجديدة

بشارع المبدولي رقم ٣٤ ـ عابدين

# حاجي بابا الإصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موبر"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

## الفصل التاسع

وصلنا إلى مشهد في الموعد المضروب ودخل موكب الأمير في وسط احتفالات أقيمت له . ووجدت نفسي غريباً في هذه المدينة التي ليس لي فيها صديق ولا أحد أستطيع الاعتماد على مساعدته . ولم يكن معي غير خمسة طومانات « ثلاثة جنيهات » سرقتها من الموكب وخبأتها في عمامتي، وكان الجندي الذي أنست منه العطف في الطريق يبرني ويقاسمني طعامه، ولكنه فصل بعد وصولنا إلى المدينة، ولم يكن من المنتظر أن يساعدني بعد فصله . وفكرت في أن أباشر صناعتي الأولى وهي الحلاقة، ولكن من الذي يأمن على رقبته رجلاً متهماً بأنه جاسوس للتركمان ؟

أطلق الأمير سراحي فلم أستفد من ذلك شيئاً بل حرمت الطعام الزهيد الذي يعطى للأسرى، وتقابلت مع صاحبي الجندي فنصح لي أن أصير سقاء . وقال لي : « أنت صغير قوي، وأنت جميل الصوت، فاذا نادبت على الماء بهذا الصوت أغريت من لا يحس بالظمأ أن يشرب . ولك فضلا عن ذلك حيلة حسنة وقدرة على الضحك على الذقون. ولا تنقطع في يوم من الأيام وفود الآتين لمدينة مشهد لكي يزوروا قبر الامام . وأول شيء يؤديه هؤلاء الزوار هو الاكثار من الصدقات لأن الزكاة كما تعلم مكفرة للذنوب عند المسلمين ، فلتسق الماء في حب الحسين قتيل الظمأ يبذل لك الزائرون المال في حبه . وتظاهر بأنك لا تأخذ أجراً على السقيا ، وقدمه لمن لا يطلبه، فاذا شرب فقل له : « هنيئاً ! وأسأل الله ألا يظمئك في يوم الحشر وألا تظمأ في الدنيا ظمأ الحسين في كربلاء »

وليكن هذا القول بصوت عال يستطيع كل من في الطريق أن يسمعه؛ فاذا بقيت على هذه الحالة مدة فاعتقد أنك ستصبح من الأغنياء »

اتبعت نصيحة هذا الصديق واشتريت بما معي من المال « قربة » وأكواباً نحاسية وثوباً من الجلد أجعله على ظهري . وذهبت إلى قبر الامام فوقفت عند بابه أصيح : « الماء يا ظمآن ! الماء في حب الامام » .

وكنت أقول ذلك بنغمة حلوة وصوت جميل فسرعان ما تميزت على سائر السقائين الذين أخذوا يتساءلون عما إذا كان لي الحق في مزاولة هذه الصناعة ، ثم تدرجوا من ذلك إلى مخاصمتي عندما أملأ القربة ، ولكنهم رأوا إصراري ورأوا أن وراء هذا الاصرار عضلات قوية فاكتفوا من المخاصمة بالمنطق الهجر، ولكنني كنت أسلط منهم لساناً فأسكتهم . وظهر لي أن الطبيعة قد هيأتني لأكون سقاء .

وقد كنت أملأ سقائي من بئر غير نظيفة ، ولكن الشاربين كانوا يلتذونه كأنه آت من بئر زمزم أو من ماء الحوض المورود في يوم الحشر

المعهود . وقد كان الربح الذى جنيته أكبر كثيراً مما كنت أتصور .

وكان لتذكيرى الناس بموت الحسين ظمأ أكبر أثر فى استجلاب أموالهم وعزمت على ألا أترك هذه الصناعة ماحييت لكثرة مالقيته من ربحها وقلة متاعبها. وكنت أعتقد أن شهرتى ستزداد بمرور الأيام .

وكان لى منافس من السقائين ، ولكن بما أن قربتى أكبر كثيراً من قربته فقد كان معترفاً بتفوق عليه. وكان الرجل شديد الحقد على ولم يكن ليمتنع عن إيصال أى أذى إلى إذا أمكنه ذلك .

ولما جاء يوم الموسم استعد كل أهل المدينة لمشاهدة الاحتفال الدينى الذى يحضره الأمير بالنيابة عن الشاه . وخرجت فى ذلك اليوم عارى الصدر والكتفين . وليس على نصفى الأعلى من الثياب شئ غير القطعة الجلدية التى أحمل فوقها القربة ووقفت أمام نافذة الأمير أسقى الناس وأدعو لسموه بالسعادة والرخاء فاستلفت نظره بهذه الوسيلة. ورمى إلى قطعة ذهبية ، وكنت قد أتقنت الحيلة قبل ذلك فاستأجرت جماعة من الأطفال يرددون هتافى على توقيع نغمتى ، وكان الجمهور يبدى من ذلك أعظم الدهشة. وقد لاحظ منافسى كل ذلك فاشتد غيظه ووقف فوق بناء ثم ألقى بجسمه فوق فوقعت على الأرض . وفى أثناء هذا اليوم لم أحس بكثير من الألم ؛ ولكننى لما عدت إلى منزلى وجدت ظهرى داميا بحيث لم يعد فى إمكانى أن أشتغل بالسقاية فى المستقبل . وفكرت فى الاشتغال بعمل آخر لأن ما جمعته من المال كان يكفى لتأسيس تجارة .

وكان صاحبى الجندى قد سافر إلى طهران فلم يبق لى أحد أستشيره . وكان علىّ قبل كل شىء أن أطالب منافسى بالتعويض لما لحقنى من الضرر ، ولكننى رأيت ذلك يكلفنى كثيراً من المال والمشقة لصعوبة التقاضى فى هذه البلاد . ولأنه لم يكن لى ناصر قوى أستعين بنفوذه

## الفصل العاشر

### حاجى بابا يبيع التبغ

أخذت أفكر فى الصناعة التى أشتغل بها فى المستقبل ، ورأيت من اشتغالى بالسقاية أن أروج صناعة فى المدينة هى التسول على أى ضرب من ضروبه، فعزمت على أن أشترى دباً وعنزة وأستجدى الناس فى الطرق بهذه الوسيلة؛ فهذا عمل رابح أيضاً ولا يحتاج تعلم الحيل التى يبديها ملاعبو هذه الحيوانات إلا إلى مدة قصيرة

ولكننى كنت متردداً فى تنفيذ هذا العزم لأنى كنت أفكر فى العودة إلى صناعتى وفتح حانوت للحلاقة ، وأخيراً أجبت هوى فى نفسى ، فاشتغلت بتجارة التبغ لأننى كنت مولعاً بالتدخين، فاشتريت مباسم من أنواع مختلفة ومؤرنات نحاسية «ماشة» لتقليب الجمر على النرجيلة ومقداراً من التبغ والطباق « التمباك » من أنواع مختلفة كالشيرازى والسومى والدمشقى . وكنت أخلط المقادير القليلة منه بمقادير كبيرة من غيره فأكسب مالاً وفيراً لهذا السبب

وكنت ألاحظ طبقات المشترين ، فالطبقة المتوسطة أعطيها من التبغ المخلوط بمقدار النصف ، والطبقة الدنيا بمقدار الثلاثة الأرباع أو من المواد التى أستعملها فى الغش خالية من التبغ بتاتاً .

أما الطبقات الراقية فكنت أعطيها تبغاً صافياً غير مخلوط

واشتهرت فى مشهد بجودة الباسم . وكان أحب زبائنى إلى رجل من الدراويش لم أكسب منه كثيراً لأننى كنت أعطيه من أحسن الأنواع بأزهد الأثمان، ولكن محادثاته لى كانت ممتعة ؛ وقد عرفنى بكثير من الناس وبذلت كل ما فى وسعى لاستثمار رضاه ومودته .

كان اسم هذا الرجل « درويش صفر » وهو رجل غريب الطلعة ذو أنف كبير أحدب ونظرات تكاد تخترق الحجب ، وهو كثيف اللحية ، وشعره الأسود منسدل على كتفيه، وقد طرزت عمامته بآية من القرآن، وعلى ظهره جلد عنزة على شكل كيس يجمع فيه ما يقدم إليه من الصدقات . وكان فى منطقه وهيئته الرائعين ما يبعث الهيبة فى النفوس كلما أراد ، وقد عرفت من معاشرته أن هذه حالة يتصنعها، لأنه عند ما يجلس بحانوتى وأقدم له النرجيلة يكون بحالة عادية طبيعية لا تبعث مهابة ولا خوفاً. وقد عرفنى فى النهاية بعدد من أصحابه الدراويش الذين دعونى إلى كثير من مجالسهم . وبالرغم من أن تعرفى بهم كان يكلفنى ضياع كثير من التبغ بغير مقابل فانى لم أقو على مقاومة الدوافع التى تجذبنى إليهم للطف معاشرتهم .

وفى ليلة قال لى صفر وقد دخنا من التبغ أكثر من العادة : « أنت ياحاجى بابا أقدر وأكبر من أن تقصر حياتك على بيع التبغ ، فلماذا لا تصير درويشا مثلنا؟ إننا نعبث بذقون الناس أكثر مما يعبث الطفل بألاعيبه ؛ وحياتنا ممتعة لذيذة لما فيها من الراحة مع كثرة الكسب، وقلوبنا مستريحة من ألم المطامع وحياتنا دائماً متغيرة متجددة رغم ما يبدو على حالتنا من الركود . إننا ننظر إلى الناس كأنهم بعض الألاعيب ونستغل مواضع الضعف والغفلة فيهم . وقد رأيت منذ عرفتك أنك تصلح لصناعتنا وتشرفها ولا ينقضي عليك وقت طويل معنا حتى تكون من الرفعة والشهرة مثل الشيخ السعدى نفسه »

وقد وافق سائر الدراويش على قوله هذا فلم أبد نفوراً من هذه الصناعة وإنما أظهرت جهلى بمؤهلاتها وقلت : « كيف مع جهلى وقلة تجربتى أصير درويشاً عند ما أريد ؟ أنا أعرف القراءة والكتابة وأحفظ القرآن وديوانى حافظ والسعدى وجزءاً كبيراً من الشاه نامه للفردوسى ، ولكننى فيما عدا ذلك جاهل تمام الجهل »

فقال لى الدرويش صفر : « أخطأت ياصاحبي فأنت لا تعرف إلا القليل عن الدراويش . إننا لسنا فى حاجة إلى كثير من المعرفة ولكننا فى حاجة قبل كل شيء إلى أن نظهر بمظهر الواثق المؤكد لا بمظهر الذى يشك ويتردد . أما المعلومات التى تعرفها فقد كان يكفيك عشرها، وأؤكد لك أن قليلاً من التأكيد يمكنك — لا من جيوب الناس فحسب ، بل ومن أرواحهم أيضاً . إن الوقاحة والنبجح كنزان لا يفنيان أيها الصديق، وقد أصبحت بهما فى نظر الناس ولياً من أولياء الله وأتيت بهما كثيراً من الكرامات. وفى إمكانى أن أقنع الناس بهذه الوقاحة أنى قد شققت لهم القمر وأنهم رأوا بأعينهم انشقاقه

ولما فرغ الدرويش صفر من قوله أكد لى سائر الدراويش أن الجماهير فى هذه البلاد من الغفلة بحيث لا يكذب بينهم مدع . ورووا لى قصصاً عجيبة

ظهرت فيها براعتهم وغفلة الجماهير . ووعدونى بأن يسردوا علىّ فى الغد تواريخ حياتهم وألحوا على أن أواجع عقلى فأنضم إليهم وأترك تجارة التبغ لأنها تجارة بائرة

## الفصل الحادى عشر

### الدراويش

لما اجتمعنا فى الغد جلسنا وفى يد كل منا غليونه . وكان بالغرفة التى جلسنا فيها نافذة تطل على حديقة مغروسة بالأزهار ، وكانت ظهورنا إلى الحائط ووجوهنا نحو تلك النافذة . وبدأ الدرويش صفر وهو أكبر الدراويش غير منازع فى الزعامة يقص علينا قصته بهذه الألفاظ قال :

كان أبي واسمه طاووس رئيساً للاعبى القرود والدباب فى قصر الشاه وقد تعلمت منه كل طرائقه وحيله كما تعلمت إحكام التقليد والتمثيل . ولما بلغت الخامسة عشرة كنت بارعاً فى هذه الصناعة . ولولا مصادفة لخلفت أبى فيها . أما ذلك الحادث فهو أن بنت قائد فرقة الجمال أحبتنى منذ رأتنى أرقص فى عيد رأس السنة . وكان لى صديق من الجمالة فى هذه الفرقة . ولهذا الصديق أخت تخدم فى بيت القائد. وكانت الألفة شديدة بينى وبين هذا الصديق الذى أخبرته أخته بميل سيدتها نحوي فذهبتُ إلى « الميرزا » وهو الكاتب الذى يجلس فى ركن من الطريق وكافتُه أن يكتب لها خطاباً غراميا يحبر شديد الاحمرار وأن يتمثل فى الخطاب بأرق الأبيات وأغزلها، ويقول فى هذا الخطاب إننى ميت لما أرسلته إلىّ من نظرات عينيها، وإن قلبي مكوى بنار حبها. ولم أستح بعد هذا القول من التوكيد بأنى أريد أن أراها وأن أطلب إليها أن تضرب لى موعداً بلقائها . وقد أخبرت الكاتب باسم التى سأرسل إليها الخطاب . وكان ذلك حماقة منى لأنه ذهب إلى القائد وأخبره بالأمر لكى ينال منه مكافأة

ولم يكن ذنبي ليغتفر عند القائد، لأن زواج ابن ملاعب القرود من بنت « زامبورا كشى باشى » جريمة لا تعد لها جريمة

وكان لهذا الرجل نفوذ كبير فى القصر فاستصدر أمراً بنفيى إلى شيراز . ولم يَسْعَ أبى إلى تأخير سفرى بل ألحّ فى التعجيل به لا مرضاة للأمير ولا خوفاً منه بل لأنه خشى أن أنافسه فى صناعته التى أصبحتُ مثله فى إتقانها

وقد قال لى يوم سفرى : « اسمع يا بنىّ ! يحزننى ابتعادك عنى ولكن التربية التى ربيتها لك والصناعة التى أخذتها عنى ستجعلان مستقبلك سعيداً إلا إذا شئت أن تفسده بالتفريط أو بالهاون. وسأعطيك أكبر قرد عندى فاعتن به من أجلى وأحببه حباً لى، وأرجو أن تصل فى وقت من الأوقات إلى مثل ما وصل إليه أبوك من المعرفة والتجربة »

قال لى ذلك ووضع القرد على كتفى . ثم غادرت منزله الأبوى وسرت فى الطريق إلى أصفهان غير محزون ولا آسف لأنى أصبحت أكثر استقلالاً ولأن فى امتلاك القرد ما يسلي . ولكن شيئاً واحداً جعلنى أذكر وطنى الأول وأحن إليه . وهو تلك الفتاة التى كنت أتخيل أنها أجمل من شيرين »

وما ابتعدت عن المدينة حتى بدت لى معالمها كالأشباح ووجدت كوخاً لأحد الدراويش فجلست فى ظله على قطعة من الحجر وأجلست القرد بجانبي مولياً وجهى شطر المدينة، ولم أملك دموعى من

الانهمال وتنهدت ودعوت الله بلهجة محزنة مؤثرة سمعها الدرويش فخرج واستخبرني عن حالتي فأخبرته، وتأثر فدعاني إلى كوخه الذي وجدت فيه درويشاً آخر على وجهه من النفوذ والهيبة أكثر مما يبدو على وجه صاحبه، وكانت ثيابه مماثلة للثياب التي على الآن وهذه العمامة هي نفس عمامته . وكان في نظراته قوة تبعث الخوف .

ولما رآني تداول مع صاحبه على انفراد ثم اقترح أن أستصحبه إلى أصفهان ووعد بمكافأتي إذا سلكت مسلكاً حسناً، ثم قدم لزميله في الكوخ غليوناً وقدم لي غليوناً آخر، وخرجت معه فسرنا نحو أصفهان وقد انقضى جزء كبير من الطريق دون أن يتحدث كلانا إلى الآخر بحرف .

وأخذ الدرويش « بدين » — وكان هذا هو اسمه — يسألني عن حياتي السالفة، فلما أخبرته بدا عليه السرور، ثم أخذ يشرح لي حياته وصناعته وحبب إليّ أن أصير درويشاً مثله . وقال لي إنني إذا عاملته معاملة التلميذ المعلم فانه ان يترك شيئاً يجب أن ألم به إلا وعلمنيه .

وكان الرجل من أعلم الدراويش وأكثرهم اطلاعاً فأخذ يحدثني عن الكيمياء والفلك وبعض ضروب السحر، وأكد لي أن ذنب الأرنب إذا وضع تحت وسادة الطفل فانه يجلب النوم، وأن دمه إذا شربه الجواد اتسمت خطواته، وأن الأولاد إذا أكلوا أعين الذئاب نشأت فيهم الشجاعة، وأن المرأة إذا دهنت جسمها بشحم الذئب كرهها زوجها، وأن أكل مرارته، يجلب العقم وأن الانسان إن وضع بين ثيابه قطعة من جلد الفهد أحبه الناس .

واستمر يحدثني على هذا المنوال حتى لدنى حديثه ورغبت في الاستزادة منه ثم قال لي : « أنت لا تعرف ياصغر ماذا تستطيع أن تجنيه من هذا القرد وهو حي مع أنك إذا ذبحته استخرجت من جثته ما ينفع في السحر ويجعل لنا منزلة عند النساء في قصر الشاه، لأن المرأة التي تأكل قطعة من كبد القرد تستعيد محبة من تريد . وجلدة الأنف من القرود إذا وضعت على المنق منعت تأثير السم، والرماد الذي يبقى بعد إحراق عظمه يكسب صفات القرد وهي المكر والذكاء والقدرة على المحاكاة .

ثم ألح عليّ أن أقتل القرد، فأزعجني هذا الاقتراح لأنني تربيت مع القرد وشاركته السراء والضراء . وكدت أبدي له الرفض لولا أن سحنته تغيرت فجأة من الابتسام والبشاشة إلى العبوس والتقطيب بشكل خشيت معه عواقب الاصرار، وقلت في نفسي إنه يستطيع أن يفعل ما يريد بغير موافقتي فلا تفيدني المعارضة غير فقدان مودته فوافقته على ما اقترح .

وما كدت أوافق حتى أخذ القرد وقتله ثم أوقد ناراً وأخرج من جثة القرد ما أراد أن يخرجه ثم أحرق باقيها وجمع الرماد في منديله واستأنفنا الرحلة .

وصلنا إلى أصفهان في وقت مناسب . وفي هذه المدينة ظهرت شهرة سيدي وجني ربحاً كبيراً. وكان يأتي إليه مئات من الناس يستشيرونه في أمورهم، فالأمهات يأتين بأبنائهن لحمايتهم من الحسد، والزوجات يطلبن منه الحماية من غيرة الأزواج، والجنود يطلبون أن يكتب لهم طلاسم تقيهم الموت في المعارك . ولكن أهم من استشاره من نساء البلاط، فقد كانت زوجات الشاه يطلبن إلى

الدرويش « بدين » أن يصف لمن مايبسط تجاعيد الوجه فلا تبدو التقطيب. وكان علاجه لذلك عظام البومة ورأس الذب وأرجل الضفدع .

وكانت كبرى زوجات الشاه غير محبوبة من جلالته فدفعت مقداراً كبيراً من المال إلى الدرويش فى مقابل قطعة من كبد القرد . وشكت إليه زوجة أخرى أن جلالته يؤثر عليها غيرها من نسائه فأعطاها بعض الرماد المتخلف عن إحراق عظام القرد . وأعطى الثالثة قليلا من دهنه

اشتركت معه فى كل هذه الحيل وساعدته بما كنت أظهره من الاحترام على رواج بضاعته التى كان يكسب منها مالاً كثيراً . أما أنا فلم أكسب شيئاً ولم يعطنى درهما مما حصل عليه ثمناً لقردى أو ثمناً لغيره من أكاذيبى

رافقت الدرويش « بدين » فى رحلاته إلى بلاد مختلفة . ولما كانت كل هذه الرحلات مشياً على الأقدام فقد شاهدت مناظر جمة ورأيت بلاداً فسيحة. وكان سفرنا من طهران إلى الآستانة ومنها إلى دمشق ثم إلى حلب ، وذهبنا إلى القاهرة ومنها إلى جدة ثم مكة والمدينة ، وذهبنا بعد ذلك إلى لاهور وكشمير فى البلاد الهندية

على أن ربحنا لم يكن كثيراً من البلدان الأخيرة لأن كثيرين من أهلها الأذكياء أظهروا كذبنا وخداعنا، فكنا ندخل البلدة معززين مكرمين ونخرج منها مطرودين محتقرين حتى وصلنا إلى الأفغان فلقينا من سرعة التصديق والسذاجة ما لم نجده فى أى مكان آخر . وأكرمنا أهلها أيما إكرام ونسبوا إلينا من الأعمال ما ليس يصدر عن غير الأنبياء

وكان يزورنا فى هرات نحو ألف نفس فى كل يوم من النساء والرجال شباناً وشيوخا. وكان الدرويش الدجال يقيم معى على رأس جبل فى هرات . ويزعم أنه لا يأكل شيئاً غير الذى تقدمه لنا الجن، ولكن مع الأسف مات صاحبى هذا متخوماً لأنه أكل من اللحم أكثر من طاقته . وقلت للناس بعد موته إن الجن حسدت الآدميين على وجود رجل مثل الدرويش بينهم فسلطت عليه الرياح الشرقية التى رفعته إلى السماء . وهذه الرياح رياح حارة تهب فى أشهر الصيف وتستمر مائة وعشرين يوماً

وقد صدق هؤلاء البسطاء ما زعمت وعدوه كرامة أخرى للدرويش الذى زادت شهرته بعد موته وأقيم له مأتم حضره الأمير وكافة الأعيان

وبقيت مدة فى هرات بعد موته فاكتسبت مالا من بيع قلامات الأظافر وقصاصات الشعر التى كنت أزعم أنها من شعر الدرويش وأظافره مع أنها كانت فى الحقيقة من شعرى وأظافرى ومما أجمعه من عند الحلاقين. ولقد كانت جملة ما بعته من ذلك كبيرة تكفى لتكوين عشرين لحية . وخشيت إذا بقيت على هذه الطريقة أن يفتضح الأمر بالرغم من سرعة التصديق عند الأفغانيين فرحلت من الأفغان إلى فارس

وفى أثناء الطريق وجدت قبائل تعيش فى الخيام بين كابول وقندهار فكان نجاحى بين هذه القبائل أكبر مما كنت أتصور فقد نلت من الحظ ما لم ينله الدرويش بدين

ثم وضع الدرويش صفر يده على ظهر الدرويش الذى كان جالساً بجانبه وقال : « لقد كان معى هذا الدرويش هناك ورأى مبلغ نجاحى الذى أصبحت

فيه مثل « حظرة إيشان » نفسه . ثم سافرت إلى مشهد ومكثت فيها مدة طويلة عالجت فيها مصابة بعينيها وشاع بين الناس أنني رددت إليها بصرها بعد أن أصابها العمى »

ثم سكت الدرويش وقال لجاره : اسرد أنت قصتك منذ تعرفت بك . فقال ذلك الدرويش : كان أبي من رجال القضاء في مدينة « قم » وقد اشتهر بكثرة الصلاة والصوم والانقطاع للعبادة وبأنه من أكثر الشيعة وسائر المسلمين صلاحاً وتقوى

وكان لي إخوة كثيرون؛ وكان أبي خشناً شديداً في معاملتنا فأنشأت خشونته وشدته في نفوسنا مكراً وحسن حيلة حتى صار يضرب بنا المثل في الرياء والكذب ونحن لم نجاوز بعد عهد الطفولة . ولما مات أبي صرت درويشاً واشتهرت لهذه الحادثة التي سأذكرها

لما وصلت إلى طهران اخترت لنفسي مجلساً أمام حانوت صغير لعطار كان يبيع العقاقير ، وقد اكتسبت مودته وثقته . وتصادف بعد عهد غير طويل من تعرفي عليه أنه مرض مرضاً شديداً وانقطع عن المجيء إلى حانوته . وبعد أسبوع أو أسبوعين من انقطاعه جاءتني بنته وطلبت إليّ أن أكتب لها « حجاباً » فأظهرت استعدادي لذلك . ولكنني طلبت أن أذهب معها إلى منزله لعيادته ولأكتب الحجاب عنده . وقلت إنه ليس معي ورقة ولا حبر ولا قلم حتى أكتب الحجاب في الطريق فأخذتني إلى المنزل

رأيت ذلك المريض نائماً في حجرة قد ازدحمت بالنساء من أقاربه يبكين ويقلن على مسمعه إنه سيموت . ورأيت للموهم أثراً في مرضه . ورأيت الطبيب الذي يعالجه جالساً في ركن من الغرفة مع النساء وفي فمه غليونه وهو الذي أمر بكتابة الحجاب حتى يجد له شريكاً في المسئولية عند ما يتضح أن دواءه غير مجد ويموت المريض

ولقد بدا الأمل على وجهه وعلى النساء عند ما دخلت حجرة المريض وطلبت قطعة من الورق ودواة وقلماً وأظهرت ثقة عظيمة مع أني إلى ذلك العهد لم أكن قد كتبت حجاباً قط، فجيء لي بالدواة وبالقلم وبقطعة من الورق غير المعد للكتابة، وظهر لي من شكلها أنه كان ملفوفاً بها بعض العقاقير التي استعملت في علاجه

كتبت على هذه الورقة اسم الله واسم النبي والحسن والحسين ومن حضرتني أسماؤهم من الأولياء والرسل ، وخططت أرقاماً حول هذه الأسماء ثم سلمت الورقة للطبيب الذي أمر باحضار طست وإبريق فحا بالماء الكتابة التي كتبتها وغسلها ثم قال : « إذا كان للمريض أجل فانه سيشفى ببركة هذه الأسماء . أما إذا كان أجله قد انتهى فلن تطيل عمره حيلتي ولا حيلة أي إنسان »

ثم أمر بأن يجرع هذا الماء فاتجهت إليه كل العيون . وبقي المسكين مدة لا تبدو عليه علامة من علائم الحياة، ثم مشى الطبيب نحوه وفتح عينيه ورفع رأسه بين ذراعيه وكلمه فأفاق، فنسبت ذلك بيني وبين نفسي إلى الدواء الذي كان في الورقة . ولكنني حرصت على أن أفهم المريض أن شفاءه إنما يرجع إلى بركة الكتابة التي كتبتها وأن ليس للطبيب فضل في شفائه

وفي الوقت نفسه حرص الطبيب على إفهامهم أن مريضهم شفي بسبب دوائه السالف وأنه لا فضل لي فقال عند ما فتح المريض عينيه وتنهد : « ألم أقل

إنه سيشفى متى تم تأثير الدواء فى جسمه ؟ أنظروا كيف كان علاجى ناجعاً ! لولاى لكان مريضكم قد مات »

إغتظت من الطبيب وخفت أن يضيع على ما كنت أنتظره من الأجر فقلت له : « إذا كنت طبيباً حقاً ، وكان فى مقدورك شفاء المرضى فلماذا استدعيتنى ؟ أنت لا تعرف من الطب غير الحجامة فلا تتدخل فيما ليس لك شأن فيه »

فأجابنى : « إسمع يا درويش ! أنا لست أنكر أنك أحسنت كتابة الحجاب ، ولست أنكر أنك تستحق على ذلك أجراً مناسباً . ولكنك تعرف من هم الدراويش وأن كتابتهم إن أفادت فببركة الأسماء التى يكتبونها لا بفضل هؤلاء الكاتبين »

أخذتنى العزة وقلت : « من أنت حتى تخاطبنى بهذا الأسلوب ؟ أنا خادم النبى فكيف أوازن بكم معاشر الأطباء الذين تضرب بجهلهم الأمثال ؟ إنكم تخفون هذا الجهل بنسبة الشر دون الخير إلى المقادير فاذا شفى من تعالجونه قلتم إن شفاءه من ثمرات علمكم ، وإذا مات قلتم وافاه أجله ، مع أنه إن شفى فعن طريق المصادفة ، وإن هلك فلأنكم تعطونه ما ليس يتفق مع مرضه . لقد كدت تقتل هذا المريض بمقاديرك لولا أننى جئت وشفيته »

ولم يكن الطبيب يتوقع أن يسمع منى كل ذلك فبهت وقال : « هل قدر لى أن أسمع كل هذا من درويش حقير ؟ »

فرددت عليه بأقسى لهجات الاحتقار . ولم يطل بيننا الجدال حتى تضاربنا وأمسكت بلحيته وأمسك بناصيتى وانتزع كل منا خصلة من شعر الآخر وصرخ النساء وعلت الضجة وجرى بعضهن إلى الطريق ولم يزل كلانا متشبثاً بالآخر حتى دخل جندى استدعى لأجلنا من الطريق

عند ما طرق الجندى الباب ترك كل منا أخاه واعتمدت على أن أهل المريض سيشهدون لى لأنهم بالطبع يكرهون الأطباء خصوصاً هذا الذى ابتز مالهم ولم يكن الشفاء على يديه ، ولأننى لم أكن أخذت أجرى ولم يكن مضى زمن طويل على شفاء مريضهم .

كنت أعتمد على ذلك ، فلما دخل الجندى لم يسأل أحداً بل نظر إلى نظرة احترام وتقدير ، وإلى الطبيب الذى قال إنه أهاننى نظرة ازدراء وتحقير ، فحار فى أمره وبدت عليه شدة القلق ؛ ثم خطر بباله خاطر فانحنى إلى الأرض وجمع بعض الشعر الذى نزعته من لحيته وقال لى أمام الجندى : « سترى فى الغد على أينا يحكم القاضى بعد ما نزعت شعر لحيتى وأنا رجل مسلم »

نخفت عند ما ذكر ذلك أمام الجندى لأن لحية المسلم مقدسة فى هذه البلاد ودبتها « دوكات » عن الشعرة الواحدة ؛ وقلت فى نفسى إن جميع ما أكتبه من الأحجبة لا يقوم بتعويض هذه اللحية . ولكننى اعتقدت أنه متى هدأ غضبه فلن ينفذ وعيده خشية نتائج المقاضاة ما دام الأمر مرجعه إلى الشهود ولذلك لم يفزعنى هذا الوعيد .

ولقد صدق ظنى وذاع فى المدينة أن الدرويش الجديد قد أحيا عطاراً من الموت فاتسعت شهرتى وبقيت كل يوم من الصباح إلى الغروب أكتب للناس أحجبة بغير انقطاع . واجتمع لدى مقدار وافر من المال . لكن لسوء حظى لم يمرض عطار آخر فأشفيه وتتضاعف شهرتى بل أخذت شهرتى

في التناقص بمضي الأيام حتى كادت تزول فعزمت على مغادرة طهران والقيام برحلة في سائر البلاد الفارسية حتى وصلت إلى هذه المدينة وكان معي خطاب من العطار ممهور بخاتمه يشهد فيه أنني رددت إليه الحياة، وكنت أطلع كل من رأيته على هذا الخطاب فظلت شهرتي قائمة على أساس هذا الحادث الفذ.

لما فرغ هذا الدرويش من سرد قصته قال الدرويش الثالث: إن قصتي قصيرة، وقد كان أبي معلماً في مدرسة، وكنت في مدة الدراسة منصرفاً إلى كتبي كل الانصراف. ولاحظ أبي أنني قوي الذاكرة فكلفني أن أقرأ له كتب التاريخ. وبهذه الوسيلة اتسعت معارفي ووعيت ما قرأته، وحسن أسلوبي فصرت قاصًّا روائياً ومات أبي وأنا لا أعرف صناعة ولا فناً أكتسب به القوت فصرت درويشاً وتنقلت بين البلدان أقص على الناس في مجامع عامة حوادث الدهور الغابرة. ثم وضعت أقاصيص صرت أقرؤها في مشارب القهوة وأتقاضى على ذلك مايسد رمقي ثم زادت تجاربي ومقدرتي في هذه الصناعة، فوضعت روايات غرامية كرواية « أمير كاني » و « أميرة سمرقند ». وراعيت أذواق الجماهير فأغرقت في الخيال وقربت المحال وكنت أسكت عند أهم موضع في الرواية التي أسردها فيكثر الاهتمام وتتطاول الأعناق تشوقاً لسماع سائر القصة ويطالبونني بأن أتمها فأطالبهم بأن يدفع كل منهم قطعة صغيرة من النقود وحصلت بذلك على مال كثير

وكنت كلما رأيت المنصتين يقلون في بلدة انتقلت منها إلى غيرها فأجدد مجهودي بها

## الفصل الثاني عشر

حاجي بابا يرى أنه عمل الخداع قصير
فيبحث له عن عمل آخر

لما فرغ الدراويش من سرد قصصهم شكرت لهم دعوتهم إياي وتمهيدهم السبيل لمستقبلي وعزمت على أن أتعلم منهم أكثر ما أستطيع تعلمه لكي أصير درويشاً مثلهم وأن أترك الاتجار بالتبغ. وعلمني الدرويش صفر طرقاً كثيرة للظهور بين الناس بمظهر العلماء. وتعلمت من الدرويش الثاني فن كتابة الأحجبة ومن الثالث فن القصص. وتعلمت منه كيف أستثير رغبة السامعين حتى يجودوا بأموالهم. وبقيت في الوقت نفسه مستمراً على بيع التبغ، ولكن بما أن الدراويش كانوا يدخنون بما يعدل كل كسبي فقد اضطررت إلى زيادة الغش في خلط التبغ. حتى صارت رائحة ما أبيع لاتفضل إلا قليلاً — رائحة القش المحروق وأوراق الشجر المتعفنة —

وفي ليلة من الليالي جاءت إليّ امرأة عجوز وطلبت أن أملأ غليونها بالتبغ وأعطتني شاهيين ( الشاهي عملة فارسية قيمتها مليم ) فملأت لها الغليون وأشعلته. وما كادت تضعه في فمها حتى سعلت سعالاً قوياً متكرراً خشيت معه أن تفارق الحياة أمام حانوتي وسرعان ما أقبل ستة رجال أشداء لنجدتها. وكان من بينهم المحتسب نفسه وهو موظف من قبل الحكومة يجلس في السوق لمراقبة الموازين وأصناف المتاجر

ولما عرف المحتسب السبب قال لي: « لقد افتضح أمرك أخيراً يا أصفهاني. لقد كنت تسمم

أهل مشهد بتبنك المسموم فستضرب على قدميك عصاً على كل شاهى أخذته من الناس

وفى الحال وضعت رجلاى فى عصاً مربوطة بحبل من طرفيها يدعونها الفلقة ولفوها على الساقين حتى أحكموا خنقها ثم ضربونى على قدمي ضرباً مؤلماً مبرحاً حتى خلت أن الأرض تدور بى وأننى أرى ألف محتسب وألف امرأة عجوز يضحكون من آلامى ويسخرون من بكائى

وأخذت أستغيث وأتوسل إلى المحتسب بأمه وأبيه وبأبنائه وبالنبى وعلى والحسن والحسين وبسائر الأئمة فلم يجد ذلك شيئاً وصرت ألعن التبغ وتجارته وبائعيه ومدخنيه

وكان أصحابى الدروايش جالسين في هدأة وصمت لا يحاول أحدهم أن يحرك ساكناً من أجلى ولا ينظر إلى نظرة عطف ثم أغمى علىّ .

ولما أفقت بعد ذلك وجدت نفسى ناءماً على قارعة الطريق وحولى عدد كبير من الناس يبدون الشماتة لما نالنى ويقولون إننى أستحق أكثر من ذلك لأنى غشاش . ولم يرض أحد أن يمد إلى يد المساعدة . ونظرت إلى حانوتى فلم أجد به شيئاً فقد أخذ كل مافيه من التبغ والباسم فاضطررت إلى الذهاب زحفاً إلى منزلى وكان قريباً من الحانوت فوصلت إليه وأنا أبكى بكاء يستجلب الشفقة لو كان فيمن يسمع من يعرف الاشفاق .

وبعد يوم قضيته فى أوجع الآلام من الجراح المتعددة في قدمى زارنى أحد أصحابى الدراويش وقال وهو خائف يترقب إنه يخشى أن يوجد عندى فيظن فيه أنه شريك لى وقال لى إنه عوقب مرة فى شبابه مثل هذا العقاب وإنه يعرف الدواء الذي يشفى قروح الجلد فيعيد القدمين إلى ما كانتا عليه . وكنت فى أثناء هذا اليوم قد عزمت على الخروج من مشهد وقلت إن مجيئى إليها كان فى ساعة منحوسة وأخبرت الدراويش بهذا العزم فحبذوه وقال لى الدرويش صفر إنه يريد مرافقتى فى هذا الرحيل وأن يكون سفرنا مع أول قافلة ، وقال إن مشيخة العلماء متيقظة منه لازدياد نفوذه على العامة والبسطاء الذين يريد العلماء الاستئثار بالنفوذ عليهم . وإنهم لذلك يدبرون ضده خطة ومن المحال عليه أن يثبت أمام مقاومتهم .

ولبست ثياب درويش وخبأت معى ما أملكه من المال واستعددت للسفر عند ما تحين ساعته . ولكن رغبتنا فى التعجيل بالسفر كانت شديدة جداً ، ومن أجل ذلك فكرنا فى الرحيل وَحْدَنا غير منتظرين موعد القافلة وأردنا عمل استخارة على ذلك من ديوان السعدى لأن الفرس يأخذون الاستخارة منه ومن ديوان حافظ ومن القرآن الكريم فكانت الاستخارة هكذا : « ليس من العقل أن يشرب الانسان دواء بغير استشارة طبيب ولا أن يسافر بغير قافلة » فنهانا هذا التحذير الصريح عما كنا عازمين عليه

ولما ذهبت للسؤال عن الموعد الذى تسافر فيه القافلة قابلت فى الطريق صاحبى « على خاطر » وهو الجندي الذى أكرمنى وأنا أسير فى موكب الأمير . وكان قد وصل فى هذا اليوم مع القافلة